

(الدَّارْوِينِيَّة)

حين تتحزَّمُ بالقرآن

المفكر حاج حمد أُنْمُوذَجًا

الإصدار (٤١)



مَحمود بن محمد المختار الشِّنقيطِيّ



الإصدار (٤١)



(الدَّارْوِينِيَّة)
حين تتحزَّمُ بالقرآن
المفكر حاج حمد أُنْمُوذَجًا

اتخذت فكرة التطور وسيلة للقضاء على الأديان والأخلاق باعتبار أن كل شيء بدا ناقصا يثير السخرية والاحتقار، ثم تطور ، وبدا كأنما أخرجت النظرية لخدمة رجال الاستعمار والسياسة أكثر مما أخرجت لعلماء الأحياء، فقد تركت آثار الصراع من أجل البقاء في أوساط السياسة والحرب، وكان لمبدأ بقاء الأصلح أثره في مخططات الاستعمار وإبادة الأجناس المغلوبة على أمرها، وظهرت من خلال نظرية التمييز العنصري والاستعلاء باللون، وفكرة الشعوب المختارة ، وبها انتفع دعاة الأرستقراطية فوجدوا فيها سلاحهم، فأعلنوا أنفسهم بأنهم الممتازون والمختارون الذين ورثوا مزايا الأمة سادة البشر ومالكو العروش وصانعو التاريخ، وتلقفها معلنو الحرب على الأديان فأخذوا يحاربون بها الأديان. فإن اتجه الترويج لها في مجتمعات الأديان الوضعية أو المحرفة ، فما يثير اهتمام هذه الدراسة جنوح بعض أبناء المسلمين إلي دعوى الموائمة بين النظرية والإسلام ، لا سيما بعد ظهور أثارها الاجتماعية المدمرة على الإنسان ، وبعدما خضعت المجتمعات المسلمة بذرائع هذه النظرية تحت وطأة ذل الاستعمار لعقود ..

الناشر



المملكة العربية السعودية
00966591104492
ص.ب 242193 الرمز البريدي 11322
daralwae@gmail.com



تصميم الغلاف

«الدَّارْوِينِيَّة» حين تتحزَّمُ بالقرآن

المفكر حاج حمد أُنْمُوذَجًا

مَحمود بن محمد المُختار الشِّنقيطِيّ

(غفر الله له ولوالديه)

ⓒ دار الوعي للنشر والتوزيع ، ١٤٣٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الشنقيطي ، محمود محمد المختار
الداروينية حين تتحزم بالقرآن- المفكر حاج حمد أنموذجا / محمود محمد المختار الشنقيطي- الرياض ، ١٤٣٧هـ
١٢٠ ص ؛ .. سم
ردمك : ٥-٨- ٩٠٥٤٠-٦٠٣- ٩٧٨
١- النشوء والارتقاء أ.العنوان
ديوى١٦٢ ٥٧٥.٠ ١٤٣٧/٣١٣٦



مركز الفكر المعاصر

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ

markazalfekr@hotmail.com

00699591104492

فهرست الموضوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

وبعد فهذا بحث شيق رائق كتبه محمود بن المختار الشنقيطي حفظه الله في تعرية الداروينيين المعاصرين في عالمنا العربي .. الذين مازالوا يتشبثون بهذا المذهب الغائر المتهالك حيث تكشف للغرب فساده منذ عقود (بعد أن ترك آثاره المدمرة في الفكر الإنساني) .. أما في عالمنا العربي فمازال كثير من مثقفينا المتغربين يؤمنون به ويتشبثون ببهتانه.

وقد كتب الأستاذ الفاضل هذه الفصول الرائقة الشيقة بروح متسامحة لكنها حاسمة لا تقبل المجاملة في الحق ... وذلك من خلال مناقشة فكر علماني تغريبي من عالمنا العربي من المؤسف أن يوصف بأنه مفكر إسلامي ...

وهو مِنْ خلال هذه الفصول يكشف تهاوِي العلمانيين الداروينيين في عالمنا العربي، كما يكشف ما وراء فكرهم من أباطيل وما تؤدي إليه وما تكشف عنه من تعدٍّ سافر على الكتاب والسنة الصحيحة، بل وصحيح الدين .

وننبه في هذه التقدمة أنَّ هذه المباحث قد سبق للمؤلف نشر حلقات منها على «الشابكة» ، ثم نقحها وأعاد تنظيمها وتحريرها ،

وأضاف إليها مقدمة تعريفية عن التطورية ومؤسسها دارون الباحث الأستاذ سامي التوني ، إضافة إلى جهوده في توثيق بعض النقول وتخريج الأحاديث . فله جميل الشكر والعرفان على هذا الصنيع الذي زاد الكتاب بهاء ومتانة ...

مركز الفكر المعاصر

دارون ..

(سـير) شـارل (تشـارل - تشـارلز - تشـارلس) روبـرت دارون (داروين) (١٢٢٣ هـ/ ١٨٠٩ م - ١٢٩٩ هـ/ ١٨٨٢ م)

عالم طبيعي، إنجليزي، صاحب مذهب «النشوء والارتقاء» (ويقال لها أيضا: نظرية التطور، ونظرية أصل الأنواع)

كـان أبـوه روبرت دارون طبيبا. درس شـارلز الطب بإدنبرة عمـلا برغبة أبيه، لكنه لـم يفلـح في إتمـام دراستها ، فتركها بعد عـامين و بـدأ يدرس العلم اللاهوتي في كيمبريدج، وكان شغفه بالتاريخ الطبيعي سببا في تعرفه بجون هنزلو عالم الجيولوجيا والنبات.

سنحت لتشـارلز فرصـة ليقوم برحلـة بحريـة لمـدة خمـس سنوات على الباخرة الملكية «بيجل» أخصائيا في التاريخ الطبيعي. وكانت هـذه الرحلة سببًا في بداية حياته في ميـدان البحث ممـا أدى بـه في النهاية إلى تكوين رأيه في النظرية التي عرفت فيما بعد بِـ (الداروينيـة) (وقـد وصـل معاصره ا. د. والاس مستقلا إلى نظرية مشابهة).

وضع دارون في كتابه : «أصل الأنواع» سنة (١٢٧٥ : ١٢٧٦هـ) / ١٨٥٩م أسـس نظريتـه والـدلائل عليهـا، كمـا وضـع نظريتـه عـن أصـل الشعاب المرجانية، لكنه لم يفصح في (كتاب) «أصل الأنواع» عن قولـه في أصـل الإنسـان، إذ خصـص لهـذا كتابـه الآخـر «أصـل الإنسـان» (أو: نشأة الإنسان).

لم يحدث أن لقي كتاب مـن الضـجة العلميـة والشـعبية مثلمـا لقـي كتاب دارون «أصل الأنواع»، وكانت المناقشـات مـا تـزال علـى أشـدها عندما أصدر دارون كتابـه «أصـل الإنسـان»، هـذا الكتـاب الـذي أوحـى بفكرة أن الإنسان يلتقي مع القرد في أصـل مشـترك ، وقـد أدى هـذا إلـى ضجة علمية وغضب ديني.

ولم يساهم دارون في المناقشات التي دارت وثارت حول الكتاب ، وقد تولى توماس هكسلي الدفاع عن نظرية التطور، وقد أدخلت تعديلات وتصحيحات كثيرة لنظرية دارون حتى لقيت قَبولا عند العلماء عندما توفي دارون سنة ١٨٨٢.

آثاره :

- : « **أصل الأنواع** ». (الإصدار الأول في ٢٤ / ١١ / ١٨٥٩، والإصدار السادس في ١ / ١٨٧٢ وقد أضاف إليه الباب السابع) (ترجمه للعربية إسماعيل مظهر ونشره باسم: «أصل الأنواع ونشوئها بالانتخاب الطبيعي وحفظ الصنوف الغالية في التناحر على البقاء»، ط. المطبعة المصرية، القاهرة، ١٣٣٦ / ١٩١٨ ، ٣١١ صفحة، ثم نشره تاما مترجما مع الباب السابع بعنوان: «أصل الأنواع. نشأة الأنواع الحية عن طريق الانتقاء الطبيعي، أو: الاحتفاظ بالأعراق المفضلة في أثناء الكفاح من أجل الحياة». ترجمة: مجدي محمود المليجي. تقديم : سمير حنا صادق. ط. المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤ م، ط١، ٨٨٤ صفحة (شغل النص ص ٥٥ : ٨٥٥)، قطع متوسط، ضمن المشروع القومي للترجمة رقم ٦٢٨).

- : « **صحيفة البحوث العلمية في رحلة البيجل** ». (صدر: ١٨٤٥)

- : « **تنوع النباتات والحيوانات تحت الاستئناس** ». (١٨٦٧)

- : « **أصل الإنسان والانتخاب بالنسبة للجنس** ». (أو: «نشأة الإنسان») (صدر: ١٨٧١) (ترجمه للعربية بعنوان: «**نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي**» د. مجدي محمود المليجي. ط. المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة، ٢٠٠٥ م، ط١، جزآن (شغل النص ص ٨٧ : ٤٦٦، ١١ : ٥٩٧)، قطع متوسط، المشروع القومي للترجمة (٩٢٩ ، ٩٣٠).

نظرية دارون ..

(وتعرف بـ: نظرية التطور، والداروينية، ونظرية أصل الأنواع، ونظرية النشوء والارتقاء ، ومذهب الانتخاب الطبيعي)

تُنسب للقائل بها العالم الإنجليزي : شارل (تشارل - تشارلز) روبرت داروين.

هي «رأي في تطور المخلوقات، فصَّلَهُ تشارلس داروين. كان له أثر كبير لا في الميدان البيولوجي فحسب بل في الفلسفة وميادين المعرفة الأخرى. أدت به دراساته إلى التساؤل عن الاعتقاد في الخلق الخاص بكل نوع من الأنواع (وهي نظرية كان يعتقد فيها علماء عصره)، فتقدم ببياناته عن تطور الأشكال الحية جميعا من أصل واحد مشترك إذ لاحظ نزعة الكائنات نحو التضاعف العددي الرياضي مع ثبات أعداد النوع الواحد تقريبا، فخلص إلى أن هناك كفاح من أجل البقاء بين أفراد النوع الواحد، وأكد وجود تغير فردي في داخل النوع وأنَّ الأفراد ذات التغير الأكثر ملاءمة يكون لها حظ أوفر في البقاء، وأنَّ بعضَ هذه التغيرات ينتقل للخلف ويحتفظ بها في الأجيال التالية، وهذا هو مبدأ «الانتخاب الطبيعي» الذي تأثر فيه بآراء مالتس...

وقد لَقِيَتْ الداروينية من علماء القرن العشرين النقد لعدم تفرقتها بين التغيير المكتسب الذي لا يورث والصفات الجينية التي تورث، ولذلك أُدخلت عليها تحويرات اقتضتها المعرفة الحديثة بأصول الوراثة»[١].

---

(١) شفيق غِرْبَال (وآخرون) : الموسوعة العربية الميسرة ص ٧٧٤ : ٧٧٥ = ٣ / ١٥٣٦ ط٢.

قال هارون يحيى: «هذه النظرية تشكل القاعدة التي يعتمد عليها كل الفلاسفة الملحدين، فمنذ أن أنكرت الداروينية حقيقة الخلق وبالتالي حقيقة وجود الله تخلى الكثيرون عن أديانهم أو وقعوا في التشكيك بوجود الخالق خلال المائة والأربعين سنة الأخيرة، لذلك يعتبر دحض هذه النظرية واجبا يحتمه علينا الدين وتقع مسئوليته على كل منا»[1].

قال د. عبد الوهاب المسيري: «**لعله لا توجد فلسفة أثرت في عصرنا الحديث أكثر من الفلسفة الداروينية، كما لا توجد فلسفة بلورت الرؤية العلمانية للكون أكثر من الفلسفة الداروينية:**

١ـ فقد رسخت الفلسفة الداروينية أفكار الواحدية المادية التي تذهب إلى أن العالم إن هو إلا مادة واحدة صدر عنها كل شيء، مادة خالية من الغرض والهدف والغاية ولا توجد داخلها مطلقات متجاوزة من أي نوع. فالعالم طبيعة، والطبيعة محايدة لا تعرف الخير أو الشر أو القُبح أو الجمال. ولا توجد أية ثغرات في الكون إذ أن المنطق المادي حتمي شامل يشمل كل شيء. ولا توجد ثنائيات في الكون إذ يُرَد كل شيء إلى المادة ويُفسَّر كل شيء بالتطور المادي. ومع هذا توجد الثنائيات الاجتماعية الصلبة: الأقوياء/ الضعفاء ـ الأثرياء/ الفقراء ـ السادة/ العبيد ـ القادرون على البقاء/ ضحايا الصراع.

٢ـ الإنسان إن هو إلا جزء من هذه الطبيعة وهذه المادة، وقد صدر هو أيضًا عنهما من خلال عملية التطور، إذ لا يوجد سوى قانون طبيعي واحد يسري على الإنسان والأشياء، فالوجود الإنساني نفسه يتحقق من خلال الآليات التي يتحقق من خلالها وجود كل الكائنات الأخرى، أي

---

(١) هارون يحيى : الأمم البائدة ص ٢.

الصراع والقوة والتكيف. وهو وجود مؤقَّت تمامًا مثل مكانته في قمة سُلَّم التطور، إذ أنه حتمًا سيفقد مكانته هذه من خلال سلسلة التطور التي دفعته إلى القمة. بل يمكن القول بأن «الأميبا» من منظور تطوري صارم أكثر تميزًا من الإنسان لأنها حققت البقاء لنفسها مدة أطول من الإنسان. والإنسان – شأنه شأن الأميبا – لا يتمتع بأية حرية ولا يحمل أية أعباء أخلاقية، فالقوانين الأخلاقية هي مجرد تَطوُّر لأشكال من السلوك الحيواني الأقل تطورًا والحرص الغريزي على البقاء البيولوجي. وهذا يعني أن القانون الأخلاقي – وكل القوانين – هي قوانين مؤقتة نسبية، ترتبط بحلقة التطور التي أفرزتها، ولذا يتم الاحتفاظ بالقوانين طالما أنها تخدم المرحلة. ومن ثم فإن الأخلاق المطلقة تقف ضد التقدم العقلاني المادي، وخصوصا إذا كانت أخلاقا دينية تدعو إلى حماية الأضعف والأقل مقدرة إلى الإشفاق عليه والعناية به.

وهذا يعني أن كل الأمور نسبية تماما ولا توجد أية مطلقات، ولذا يمكن القول بأن النظرية الداروينية هي الأساس العلمي للفكر النسبي. وإذا كان التطور يتم أحيانًا عن طريق الصُّدْفَة وتحدِّدُهُ الحوادث العارضة فيمكن القول بأن النظرية الداروينية هي أيضا أساس الفكر العبثي ...» [1] إلخ ، هام جدا

*** نظرية دارون في عالمنا الإسلامي ...**

نثبت هنا كلاما عن الأستاذ أنور الجندي على طوله لكنه يعرب عن تاريخ الفكرة في الثقافة العربية بأسلوب موجز وجامع قال رحمه الله :

«كانت نظرية دارون من أُولى السموم التي طرحها الفكر الغربي

---

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ج ٢ ، مادة الداروينية الاجتماعية.

الوافد في أفق الفكر الإسلامي.. لقد جاءت مع الرياح الصفراء التي هبطت على بلاد المسلمين بعد الاحتلال البريطاني لمصر، ومع مقدِم جماعة خريجي الإرساليات التبشيرية (التنصيرية): صَرُّوف، ونَمِر، ومكاريوس أصحاب «المقطم» و«المقتطف»، ومعهم الدكتور شبلي شميل الذي كانت مهمته الدعوة لنظرية دارون، والذي ترجم أشد الكتب الغربية تطرفا في فهم هذا المذهب كتاب «بخنر» الذي يعد من أشد المتطرفين في المذهب المادي الملحد.

وهكذا كان شبلي شميل رائدَ هذه المدرسة التي سار في طريقها فرح أنطون وإسماعيل مظهر وسلامة موسى مع اختلاف في الفرعيات ومحاولة امتصاص سخط المسلمين، حتى كان أصحاب المقتطف - حَمَلة رسالة التغريب وأعداء اللغة العربية والقيم الإسلامية الأساسية - كانوا يظهرون الخلاف معها، ... ولم يكن مذهب دارون ودراسته إلا مدخلا إلى هذه الحملة المادية التي كان يراد بها أن تجتاح الإسلام أساسا، وتقيم فلسفة الاجتماع على القوانين الطبيعية ...

ولقد حاول إسماعيل مظهر أن يقدم منهج النشوء والارتقاء على أنه ليس معارضا للأديان في محاولة أخرى لتقبله بين الجماهير ولكنه فشل، كذلك فقد عرض سلامة موسى نظرية التطور ولم تلق رواجا، وقابلها الناس بمزيد من العبث وعدم الثقة، فقد كانت تخالف مفهوم الإنسان الذي جاء به القرآن الكريم واضحا صريحا حين أعلن أن الإنسان خُلِقَ مستقلا تمامَ الاستقلال عن الأنواع الأخرى.

ولقد عرضت القوى الاستعمارية (نظرية التطور) ومفاهيم دارون على دراسات العلوم الطبيعية في أغلب بلاد العالم الإسلامي وأحدثت آثارًا بعيدة من الشكوك والازدواج بينها وبين مفاهيم الإسلام عن قصة

الخلق، وقد تعالت الصيحات في الغرب تطالب بإسقاط هذه النظرية من مناهج الدراسة، وفي الغرب رُفعت القضايا في المحاكم للفصل في هذا الأمر.

أولا: ليس الخطر الحقيقي في نظرية دارون، وذلك أن دارون نفسه أعلن أنه على غير يقين من دعواه عن الصلة بين القرد والإنسان، وقد قال في ذلك صراحة تامة: إن هناك حلقة مفقودة لم يصل إليها، ولكن الخطر في علماء الفلسفة المادية الذين يصدرون عن مفاهيم التلمود والذين يطمعون في إسقاط صفة «الإنسانية» عن البشرية وإحلال صفة «الحيوانية» عليها، فهم الذين حملوا هذه الأفكار ووسعوها، ودفعوها دفعا، وفرضوها على علوم الاجتماع والنفس والأخلاق والدين والأدب، كمنطلق للصهيونية اليهودية الراغبة في تدمير المجتمعات الإنسانية بنشر دعوى المادية والحيوانية وغيرها، ومن هنا اصطنعت فكرة (التطور المطلق) الذي يعارض طبيعة الحياة ومفهوم الفطرة ومقررات الدين الحق.

ومن الجائز أن يكون (دارون) لم يكن يدري مدى الخطورة من وراء قوله بأن الأجناس كلها من أصلٍ واحد، وأن الإنسان من أصل حيواني فإنه قد فتح بابا خطيرا من الشبهة التقطه أعداء الإنسان، وساروا به للدعوة إلى حيوانية الإنسان الذي كرمه الله تبارك وتعالى وفضله على كثير من خلقه، ولم يتنبه دارون إلى مفهوم الدين الحق الذي أعلن كرامة الإنسان واستخلافه في الأرض.

ولقد كان لنظرية التطور وتحولها من نظرية بيولوجية إلى نظرية اجتماعية أبعد الأثر في ضرب القيم والثوابت، ومنها العقيدة والشريعة والأخلاق.

ثانيا: لم يفهم دارون العلاقة بين الطبيعة والإنسان، ولقصور نظرته وقلة أدلته أكبر من شأن التنازع (تنازع البقاء)، وقد حال هذا بينه وبين رؤية (التعاون) بين الحيوان والنبات الذي هو أوسع وأكبر من التنازع.

ويرى العلماء أن (دارون) أخطأ خطأ فادحًا عندما زعم أن تنازع البقاء هو كل شيء أو يكاد يكون كذلك، فقد تبين للعلماء أن التعاون في الطبيعة أكثر من التنازع، بل لا يكاد يكون هناك تنازع في عالم الحيوان بالمعنى البشري الذي نفهمه لهذه الكلمة.

ثالثا: فساد نظرية الانتخاب الطبيعي التي جاء بها دارون فقد أعلن العلماء في الأخير أن هذا التفسير الذي تقدمه نظرية التطور والاتقاء قد اهتزت أساساته من جذورها، وقد انفتح الباب أمام نظرية جديدة تفسير اختلاف أجناس المخلوقات.

يقول جين روستند (عضو الأكاديمية الفرنسية للعلوم، وعميد علماء البيولوجيا الفرنسية): إن نظرية التطور التقليدية بمعناها الحرفي قد غدت الآن شيئا ماضيا، وإنه لا يجوز تفسير التطور بمثل هذه التعبيرات السطحية التافهة كاصطفاء الطبيعة للجنس الأصلح لمجرد أن علماء البيولوجيا قد أخفقوا حتى الوقت الحاضر في إثبات ما إذا كان بالمستطاع التأثير على تغير الأجناس أو التحكم به أو خلقه عن طريق العلمية نفسها.

رابعا: راجع العلماء مفهوم التطور المطلق الذي أُضفِيَ على «نظرية التطور» فأثبتوا أن حقائق الأشياء ثابتة لا تتغير وإنما الذي تغير هذه الصور فقط، فنزعة الطعام لا تزال ثابتة، وإنما الذي تغير هو صور الطعام، وكذلك فيما يتعلق بنزعة اللباس والقتال واتخاذ السكن، وبرهنوا على أن التطور ليس قانونا أخلاقيا وليس كل طور أفضل من

الطور الذي سبقه، فإن التطور قانون اجتماعي يتحرك في إطار الثوابت، ولا يقتضي مطلقا تفضيل الطور الأخير على الأطوار السابقة، والتطور غير التطوير، والتطور ليس كله تقدما، والجديد ليس الأصلح دوما، وهم بذلك قد زيَّفوا زعم (سبنسر) بأن التطور الاجتماعي تطور حتمي لا شعوري.

خامسا: كشف الباحثون أن الداروينية قد استُغلت في محيط السياسة مما أدى إلى إيجاد جو مضطرب أطلت منه مذاهب العنصرية؛ فقد كان قول دارون بأن العناصر الضعيفة يجب أن تموت أو تستأصل مما استغلته حركة الاستعمار العالمي كنظرية لتطبيقها على البلاد المحتلة.

سادسا: اتخذت نظرية التولد الذاتي (التي قال بها دارون ولامارك وأرنست هيجل) منطلقا إلى الإلحاد، وجعلها البعض سندا في إنكار العقيدة الدينية، واتخذت منها فلسفة ضالة لنفي الخالق وإعطاء المادة صفة القادر على كل شيء، ومن ثم دعا هيجل إلى (تأليه الطبيعة) وإنكار وجود الله تبارك وتعالى والقوة بوحدة الوجود، وهي النظرية التي أبطلها العالم الفرنسي باستور عندما اكتشف دور الذباب في نقل الجراثيم التي ينشأ عنها الدود في اللحم المتعفن، والتي كانت أساسا للقول بنظرية التوالد الذاتي في مرحلة ما قبل العلم المجهري.

سابعا: اتخذت فكرة التطور وسيلة للقضاء على الأديان والقوانين وذاتية الأمم باعتبار أن كل شيء بدا ناقصا يثير السخرية والاحتقار، ثم تطور، فلا قداسة إذن لدين، ولا وطنية، ولا قانون، ولا لمقدس من المقدسات، وبدا كأنما أخرجت النظرية لخدمة رجال الاستعمار والسياسة أكثر مما أخرجت لعلماء الأحياء، فقد تركت آثار الصراع من

أجل البقاء في أوساط السياسة والحرب، وكان لمبدأ بقاء الأصلح أثره في مخططات الاستعمار وإبادة الأجناس المغلوبة على أمرها، وظهرت من خلال نظرية التمييز العنصري والاستعلاء باللون، وفكرة الشعوب المختارة (الألمان، واليهود)، وصيغت من خلال ذلك نظرية القوة عند نيتشه ومن ذهب مذهبه من علماء الجرمان، وبها انتفع دعاة الأرستقراطية فوجدوا فيها سلاحهم، فأعلنوا أنفسهم بأنهم الممتازون والمختارون الذين ورثوا مزايا الأمة سادة البشر ومالكو العروش وصانعو التاريخ، وتلقفها معلنو الحرب على الأديان فأخذوا يضربون بها جدار الدين، ويعلون شأن العلم عليه.

ثامنا: أكد العلماء أن التطور قانون اجتماعي وليس قانونا أخلاقيا، وأنه يتحرك في دائرة الثوابت، ولكنه لا يقتضي مطلقا تفضيل تطور الأخير على الطور السابق له، فليس كل طور أفضل من الطور الذي سبقه، لأن التطور في الحياة قد يكون ارتقاء وقد يكون ترديا وانتكاسا.

وقد تبين من عبارة «بروتوكولات صَهيون»: **«إن دارون ليس يهوديا، ولكننا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع، ونستغلها في تحطيم الدين. لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشه بالترويج لآرائهم»**.

وبعد مائة سنة تكشف فساد نظرية دارون، وقد أعلن العلماء أنها أسطورة قد انهارت، كذلك أثبتت الحفريات التي ظهرت في مختلف البقاع أن الإنسان خُلق خلقًا مستقلا وأنه لم ينحدر من فصيلة القرد، وقد عارض العلماء البيولوجيون افتراض أن الخليقة كلها من أصل واحد وأن الإنسان فرع من فصيلة الحيوان في أرقى درجاته وهو القرد، وعرف أن قوى كبرى كانت وراء ترويج ذلك، وقد أعلنوا صراحة أنه لا علاقة للإنسان بالقرد ولا تجانس بينهما.

أولا: البحث العلمي أسقط النظرية :

قال جال بيغتو رئيس المجمع العلمي الفرنسي: «لقد وقف هذا العالم نصف قرن تقريبًا على دراسة أصل الإنسان، واستطاع أن يؤكد أخيرا أن الإنسان ليست له علاقة تجانس بالقرد، وأن النظرية التي تقول بذلك مفتقرة إلى البرهان الحاسم، وأن المشابهات بين القرد والإنسان غير كافية للجزم بوجود أصل مشترك للإنسان والقرد».

ثانيا: الحفريات أسقطت النظرية :

قال د. رونالد جونسون (أستاذ علم الأجناس البشرية): «إن العلماء يستطيعون الآن أن يقولوا بنسبة ٩٩.٩ ٪ من الدقة أن الإنسان سار منتصبا على قدميه منذ بداية تاريخه الإنساني، منذ ثلاثة ملايين سنة». وقد أعلن ذلك في مؤتمر صحافي في مارس ١٩٧٤ وهو يمسك في يديه بخمس قطع من العظام يرجع تاريخها إلى ثلاثة ملايين سنة عُثر عليها في أواخر عام ١٩٧٣ في أثيوبيا، وقد ظهر الإنسان كائنا فريدا في نوعه وسط دنيا من الوحوش الكاسرة، وأن هذه العظام قد سدت الثغرة التي ظل العلماء يتحدثون عنها تحت اسم «الحلقة المفقودة».

وهذا د. بير بيرسون (الأخصائي في علم الوراثة، بجامعة أكسفورد) أصدر بالاشتراك مع ثلاثة من زملائه قانونا اشتهر باسم «قانون القرد» حظروا فيه على المدارس والجامعات أن تدرس المذهب الداروني وذلك لبطلان النظرية.

كما أعلن العلماء ظهور الكشف العلمي الذي هدم نظرية التطور تماما وهو اكتشاف وحدات الوراثة التي أثبتت استحالة تطور الكائن الحي وتحوله من نوع إلى نوعٍ آخر، فقد ثَبَتَ أنَّ هناك عوامل وراثية

كامنة في خلية كل نوع تحتفظ له بخصائص نوعه وتحتم أن يظل في دائرة النوع الذي نشأ فيه فلا يخرج قط من نوعه ولا يتطور إلى نوع جديد، كل ما يمكن أن يقع - حسب نظريات الوراثة - هو الارتقاء في حدود النوع نفسه دون الانتقال إلى نوع آخر» [1].

---

(١) أنور الجندي: جيل العمالقة والقمم الشوامخ ص ١٧٦ : ١٨٣ باختصار.

مصادر ومراجع المقدمة التعريفية بداورن ونظريته :

- سمير حنا صادق : مقدمة ترجمة "أصل الأنواع / دارون، ترجمة: مجدي المليجي" ص ١٧ : ٢٢.
- مجدي المليجي : مقدمة ترجمته لـ"نشأن الإنسان/ دارون" ص ٦٤ : ٧٤.
- إسماعيل مظهر : « أصل الأنواع لدارون ».
- إسماعيل مظهر : « ملتقى السبيل ». (في مذهب النشوء والارتقاء)
- الأعلمي : دائرة المعارف ١٨ / ٥٠
- أنور الجندي : الشبهات والأخطاء الشائعة في الأدب العربي والتراجم والفكر الإسلامي ص ٣٤٧ : ٣٤٨.
- أنور الجندي : جيل العمالقة والقمم الشوامخ في ضوء الإسلام (تأثيره في الفكر الغربي والفكر العربي المعاصر أيضا).
- أنور الجندي : مقدمات العلوم والمناهج ٧/ ٥٥ ، ٧٠ : ٩٧، ١٠٥.
- أنيس منصور : على رقاب العباد ص ١١٧ : ١١٨ (٩٠).
- حسين بدران (وآخرون) : الثبت البيليوجرافي ص ١٢٠.
- دار الشعب (القاهرة) : دائرة معارف الشعب ٥ / ٣٥٥.
- داروين، فرانسيس (ابنه) : « حياة وخطابات تشارلس دارون ». (أو: « تشارلس دارون حياته ورسائله »).
- داونز، روبرت ب. : كتب غَيَّرَت وَجْهَ العالَم (رقم ١٤) (أثره في الفكر الغربي).
- سلامة موسى : هؤلاء علموني ص ٤٠ : ٥١.
- سيد قطب : هذا الدين ص ٧٦ والحاشية ٢.
- شفيق غِرْبَال (وآخرون) : الموسوعة العربية الميسرة ص ٧٧٤. (= ٣/ ١٤٧١ ط٢).

- عبد الوهاب المسيري : موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية ج ٢ (مادة الداروينية الاجتماعية) (مبحث ثمين مطول)
- العقاد : عقائد المفكرين في القرن العشرين ص ١٥٥ .
- المستشرقون : دائرة المعارف الإسلامية ٤ / ٢١٣ .
- المستشرقون : دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة ١) ٩ / ٣٣٩ .
- محمد محمد حسين : الإسلام والحضارة الغربية ص ١٣٥ .
- هارت : الخالدون مائة ص ٧١ : ٧٤ . (١٧)
- محمد فريد وجدي : دائرة المعارف ١ / ٥٣٠ ، ٤ / ٢٩ (مادة)

«الدَّارْوِينِيَّة» حين تتحزَّمُ بالقرآن

المفكر حاج حمد أُنْمُوذَجًا

مَحمود بن محمد المُختار الشِّنقيطِيّ

(غفر الله له ولوالديه)

«١»

واقع المشكلة ...

قبل عامين – تقريبًا – قرأتُ حوارًا يدورُ حول الأفكار المستقاة مِنْ نظرية «داروين»، كان ذلك الحوارُ عبرَ وسيلةِ التواصل الحديثة «تويتر»، والحقُّ أنَّ الأمرَ – كان في معظمِهِ – عرضًا للأفكار المتكِئة على تلك النظرية، أما المُخالفون فكان صوتهم خافتا .. وقد عرضتُ عليهم الحوارَ مرةً، ومرتين، فلم يجبني أحدٌ، يومها كتبت كُليمةً تحت عنوان: (حوارٌ هادئٌ مع الداروينيين).

ثم نبهني بعض الأخوة الكرام إلى كتاب (جدلية الغَيب والإنسان: العالمية الثانية) للمفكر الإسلامي (!) الأستاذ محمد أبو القاسم حاج حمد، وقد بحثتُ عن الكتابِ فلم أعثرْ عليه، ، ثم بحث لي عنه ابني «أشرف» في «الشابِكة» فوجد عدة نسخ واحدة نشرتها دار الساقي سنة ٢٠١٢ تقع في ٧٩٢ صفحة، وأخرى نشرتها دار ابن حزم سنة ١٩٩٦ وتقع في ١٠٧٨ صفحة، بعنوان: (العالمية الثانية: جدلية الغيب ...)، ونسخة ثالثة تقع في ٦٦٢ صفحة، عنوانها: (جدلية الغيب ..: العالمية الثانية).

ولقد أثارت قراءتي للكتاب سؤالا ملحا تبادر إلى ذهني :

ما الذي جعل مثقفي أمتنا وطليعتها من الشباب ينجذبون كل هذا الانجذاب إلى تلك النظريات الغربية والتي يضربُ بعضُها بعضًا؟!

كان السؤال نفسه – تقريبًا – قد خطر في بالي وأنا أستمع إلى شهادات بعض الموريتانيين حول مرحلة ما بعد الاستقلال وانتشار البعثية والناصرية وأفكار اليسار .. إلخ .. كيف وجدت ذلك الرواج في مجتمع مسلم فيه قدر كبير من الاعتماد على «المحضرة» أو تعلم

القرآن الكريم؟! ثم رأيت الأستاذ أحمد منصور طرح السؤال نفسه على ضيفه في برنامج «شاهد على العصر» - الصادق المهدي - عن سبب انتشار الشيوعية في المجتمع السوداني المسلم، الصوفي؟!.

أعتقد أنَّ الموضوع في حاجةٍ إلى دراسةٍ جادة.

كما أعتقد أنَّ نَظْمَ تلك الأفكار الفلسفية في إطارٍ جامعٍ .. لامعٍ .. قد يكون هو السبب الذي يقف خلف ذلك الانبهار .. إضافة إلى مبدأ الجِدَّة أو الحَدَاثَة - في حين يتناثر فكرُنا الإسلامي في نصوص متفرقة .. مثل قول الحبيب ﷺ: «مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ»[1] .. وهذا أصلٌ في العدالة الاجتماعية .. لكنه ضِمن نصوص متناثرة لم ينظمها أحدٌ في سِلْكٍ وَاحِدٍ ويدعو الناسَ للسير خلفه من أجل تطبيقها.

هذا الجانب الفكري أو الفلسفي إنْ صحَّ التعبير ..

أما الجانب الآخر فهو متعلق بنقطةٍ أشرتُ لها عدة مرات، وملخصها أن هذا التغيير الذي يحصل في الأذهان بسبب الاحتكاك بالحضارة الغالبة، و«التمدرس» في مدارسها المفتوحة أي «التلفاز والسينما» وما شابهما، إضافة إلى الدراسة الفعلية في الغرب نفسه .. حتى ألف الناس أوضاعا كانت تستعصي على التصور قبل أزمان قليلة قبل أن تنفتح عليهم فتنة التعليم والهجرة الى الغرب فبتنا نحمِّل العفة أوزار الفجور، والاستقامة آثام الانحراف والضلال.. حتى كتب أحدهم - عند حدوث أول حالة تحرش جماعي: نفق النهضة - إن

---

(١) حديث صحيح. أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» ١ / ٢٥٩ (٧٥١) عن أنس رضي الله عنه. وصححه لغيره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٦١).

السبب هو الكبت، وعدم قدرة الشاب والشابة على اللقاء العلني في مكان عام.

وقد أشار معظم المنشقين - إِنْ صحَّ التعبير - عن التيار الليبرالي - في السعودية - أنَّ القضية الأساسية لديهم كانت هي «النساء» وكل ما يتعلق بإشباع الشهوات .. حتى ذكر كاتبان - أسماهما أحد الساخرين: «هيئة كبار السُّكارَى» - أنَّ الخمرَ لم تحرم في القرآن الكريم.

كما علق أحد «الداروينيين الجُدُد» - عبر «تويتر» - أَنَّ الإسلامَ يخلو من الروحانيات!! ولم أفطن وقتها أنه يقصد «المشروبات الروحية»!!

مِن هنا أقول .. ودون تعميم .. إِنَّ القضايا التي تُثَارُ حولَ الإلحاد ليست حقيقية .. الأقرب أنها تُذكِّرُ بقولِ أحد الغربيين: «إذا لم يكن الله موجودا .. فكل شيء مباح» ..

هؤلاء - دون تعميم - أرادوا أن يكونَ كلُّ شيء مباحا .. واللهُ موجودًا أيضًا .. ومن هنا يأتي هذا الاحتفال بالمفكرين الذين ينطلقون من القرآن .. ويرضون مِن السُّنَّة المطهرة بما يوافق أهواءهم .. ويتبنون الفلسفات المادية .. سوءا كانت إلحادية أو غير إلحادية .. والله أعلم.

أعود إلى كتاب المفكر «محمد أبو القاسم حاج حمد» وقد قرأتُ الكتابَ - النسخة ذات الصفحات الـ ٦٦٢ .. وهو نسخة طويلة .. مليئة بالتكرار والهوامش المطولة جدًّا[١].

وقَبل الإبحار في الكتاب أشيرُ إلى مفهوم «الأمية» عند حاج حمد:

---

(١) ومن أمثلة ذلك حاشيته المطولة الخاصة بفلسفة ابن عربي ص ١٩٥ : ٢٠٣، وانظر: جدلية ... ص ٣١٦.

يقول «حاج حمد»:

(مفهوم (الأميين) بمعنى (غير الكتابيين) وليس (غير الكاتبين) مفهوم أساسي وتأسيسي لكثير من طروحات هذا الكتاب)[1].

ويضيف:

(وقد ذهب إلى مثل هذا التفسير بعض علماء الإسلام أمثال قتادة وابن زيد، فقد روى عنهم الطبري في تفسيره ما يشبه هذا الذي قررناه هنا مِنْ أَنَّ العربَ أمةٌ أُمِّيَّةٌ، أي أنهم ليس لهم كتاب سماوي يقرؤونه ويدينون به (..) تمييز الشهرستاني لمعنى الأميين كمقابل لأهل الكتاب، أي اليهود والنصارى)[2].

هذه الإشارة تشي بأن بعض السلف سبقوا إلى ما يطرحه المفكر «حاج حمد»، وهذا على أقل تقدير ينتفي عن طرح «الجِدَّة».

وقد قال مفكرنا «حاج حمد» عن نفسه:

(حزمت نفسي بالقرآن، محاولا الوصول إلى (مجمع البحرين)، سابحا من الزوايا المحددة في الرؤية الوضعية للأمور، إلى نقطة التلاشي الغيبية ...)[3].

ما كان لصاحب هذا القول أن يقفز فوق قول الحق سبحانه وتعالى عن اليهود: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ [البقرة: ٧٨]، في إطار أنَّ «الأميين» غير الكتابيين .. واليهود أهل كتاب.

و«حاج حمد» لا يخفي أنه يتكئ على «الداروينية»، بل يقول:

---

(١) جدلية ... ص ١٢٦.
(٢) السابق ص ١٣٢- ١٣٣.
(٣) السابق ص ١٠٩.

(لم يكن بحثنا انتصارا للتطورية الداروينية التي يأتي القرآن بما هو أعمق منها تفصيلا في مسألة الخلق والنشأة وتصوير الكائنات)[1].

ويتخذ مدخل نفي الترادف في الدلالة القرآنية بين لفظ (بشر) و(إنسان) في استعمالات القرآن إلى دعوى تطور الأخير من الأول !!

ويُشير المفكر إلى أنَّ «البشرَ» كانوا مخلوقات أقرب إلى «البهائم» - أو هم بهائم - ثم نفخ الله سبحانه وتعالى الروح في أبينا آدم - عليه وعلى نبينا السلام - يقول «حاج حمد»:

(قد أدى نفخ الروح الإلهي في آدم إلى ضرورة تميزه العقلي والسلوكي عن البهيمية البشرية لأولئك الذين احتجت الملائكة على سلوكهم .. (..) وقتها لم يكن آدم قد خُلِقَ بعد، فوجوده لاحقا كان بغيب يعلم الله ميقاته، فلما انكشف الغيبُ عن هذا الميقات «وُلِدَ» آدم من أبوين بشريين حيث نفخ الله فيه الروح وعلّمه الأسماء)[2].

لقد بنى حاج حمد قوله على التفريق بين «البشر» و«الإنسان»!! فجعل «البشر» اصطلاحا سابقا على خلق آدم عليه السلام، وأن اصطلاح «الإنسان» تضمن معنى زائدا يجعله يترقي خلقا وروحا على الخلق الأول الذي يخصهم بمصطلح «البشر» .. فآدم هو أبو الناس وأول إنسان، وليس أبا البشر، بل خلق من بَشَرٍ ... فله والدان من البشر خلق منهما !! .. وبذلك يتوصل إلى التطور المزعوم من بشر إلى إنسان في خلق آدم نفسه ..

وقد لخص المنجد هذه الفكرة في جوابه عن محمد الشحرور فقال :

---

(١) جدلية الغيب ص ٨٠.

(٢) السابق ص ٨٤ - ٨٥.

(... ويرى الباحث الكريم أن هناك جنس بشري وجنس إنساني، وآدم هو أبو الجنس الإنساني لا البشري، والروح هي التي حولَّتْ البشرَ إلى إنسان، أي نقلته من المملكة الحيوانية إلى كائن عاقل واعٍ، فقبل آدم (كان ثمة صِنْف من المملكة الحيوانية يُدعَا البشر، ثم اصطفى اللهُ آدمَ وزوجته من ذلك الصنف ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ ... ﴾ [آل عمران: ٣٣] .. لقد نفخ الله الروح في البشر فتحول إلى إنسان وتطور وتقدم، ولم ينفخ الروح في القرود فبقيت كما هي) [(١)].

ولنا أن نقول: كيف تجاوز المفكر «حاج حمد» قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ [(٢)] [الأنبياء: ٣٤]؟

ويحلل لنا كيف خاطب الله سبحانه وتعالى خير خلقه بـ«بشر» ،إذ يصح التقدير في غير القرآن: «وما جعلنا لآدمي» .. أو «.. إنسان» مثلا . وأصرح من ذلك في نقض هذا القول قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠]

ويكمل الأستاذ «المنجد» نقده للدكتور «الشحررو» فيقول :

(وهنا لا بد أن يتساءل القارئ عن الكيفية التي توصل بها السيد المؤلف إلى هذه الأفكار المهمة، وعن الأدلة والبراهين التي اعتمدها، دون أن يشير إلى فرضية داروين ومَنْ بَعده في أصل الأنواع ما دام السيد الكاتب يقرأ ذلك من خلال نصوص القرآن!

---

(١) (مجلة عالم الفكر) الكويتية : المجلد الثاني والعشرون - العدد الرابع - إبريل / يونيو ١٩٩٣م..

(٢) وأظهر منه في الدلالة قوله ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾[ص : ٧١-٧٢].

لقد استند المؤلف في رأيه حَوْلَ الفَصْلِ بين الجنس البشري والجنس الإنساني إلى دليل ما بعده دليل!! هو أن كلية الطب تسمَّى «كلية الطب البشري» لا «الإنساني»! لأنها تدرس الإنسان بصفته كائنا حيًّا مشابها لبقية المخلوقات، وفي المقابل هناك علوم تسمى «العلوم الإنسانية» لا «البشرية» لأن الإنسان هو الذي أوجدها كالقانون والسياسة والآداب والفلسفة !!!

لاشكَّ أَنَّ هذا الكلام لا يمثل براهين علمية، ولا أدلة عقلية، ولا عَلاقة له – أصلا – بأي منهج علمي، وهو مِنْ ثَمَّ لا يحملُ أيَّ احترام لعقل القارئ وفكره (..) أما الآية التي أوردها المؤلف وكأنها شاهد على أن الله اصطفى آدم من المملكة الحيوانية، وهي قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ ... ﴾ فقد بترها ولم يكملها وهي كاملة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣] وهي واضحة الدلالة، فهل كان نوح أيضا وآل إبراهيم وآل عمران في المملكة الحيوانية المسماة بالبشر، ثم اصطفاهم الله من ذلك الصنف!!)[١].

بل نقول هل كان نوح وآل إبراهيم وآل عمران يمثلون أطوارا ثابتة في الاصطفاء من المملكة الحيوانية المسماة «البشر» بعد آدم عليه السلام على النحو الذي كان عليه انتقاء آدم نفسه، برعاية الأزمان السحيقة الفاصلة بين هؤلاء الأنبياء الكرام، مما يعني استمرار وجود البشر بالتوازي مع وجود الإنسان ! فهل المسألة إذن مسألة تطور نوع وفناء نوع بقانون التطور في الصراع والبقاء، أم انتقاء دوري للإنسان من

(١) مجلة (عالم الفكر) الكويتية: المجلد الثاني والعشرون – العدد الرابع – أبريل – مايو – يونيو ١٩٩٣.

ديمومة ثابتة للبشر؟ فأين هؤلاء البشر اليوم أذن؟ وقد استمر الوحي يذكرهم إلى عهد تنزيل القرآن؟

وعلى كل حال .. يثير كثيرٌ من مثقفينا تساؤلات حول مهاجمة أطروحات «المجتهدين الجُدد».. وأنَّ ذلك يدلُّ على مصادرة للاجتهاد، وتجديد الفكر الديني .. والذي حصُلَ فعلا هو أنَّ كثيرًا من المثقفين يصادرون حقَّ مْن يَرُدُّ على تلك الاجتهادات .. فليس لدينا في الإسلام «رجال دِين» .. مفكر «اجتهد» – وإن كان في غير تخصصه – فردَّ عليه آخرون .. أليس هذا من أبسط حقوقهم؟!

«٢»

الأخلاق عند الداروينيين ...

يقول المفكر الدكتور المهندس «محمد الشحرور» (فيما نقله عنه الأستاذ «ماهر المنجد» – والشحرور مفكر (إسلامي) يتبني رأي حاج حمد في تلائم القرآن مع نظرية التطورية الحديثة–:

(إذا شاهد والد ابنته وهي عارية فلا يقول لها «هذا حرام»، ولكن يقول لها «هذا عَيب» ..).

إنَّ مثل هذا الاجتهاد – والذي انطلق من القرآن الكريم، المصدر الأول للتشريع – يُنهي الجدل الذي طال حول (حجاب المرأة) .. فإذا أجاز القرآن للمرأة المسلمة أن تظهر عارية – تماما – أمام السبعة المذكورين في سورة النور .. فإن كل حديث عن (تغطية الوجه) هو نكتة لا تُضحِك .. فكيف لا يبايع مَن أرَّقتهم قضيةُ الحجاب هذا الفكر الجديد؟!

وبشكل عام لا تمثل الأخلاق شيئا ذا بال لدى الفلسفة المادية، وعلى رأسها الداروينية بطبيعة الحال .. (تساءل «ماندفيل» أستاذ علم الأخلاق الإنجليزي: «ما أهمية الأخلاق لتقدم المجتمع والتطور الحضاري»؟ وأجاب ببساطة: «لا شيء، بل لعلها تكون ضارة»)[1].

لا غَرو أَنَّ رأي الماديين أن الأخلاق لا قيمة لها .. فلا فرق عندهم بين الإنسان والحيوان .. (يقول الماديون أن الإنسان هو الحيوان الكامل «L،home Machine»، وأنَّ الفارقَ بين الإنسان والحيوان إنما

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش، ترجمة: محمد يوسف عدس، دار الشروق، القاهرة، ٢٠١٤م، الطبعة الخامسة، ص ١٩٢

هو فَرْق في الدرجة وليس في النَّوْع، فليس هناك جوهر إنساني متميز).. (يقول «جون واتسون» في المجلة النفسية: «إنه لا يوجد فاصل بين الإنسان والبهيمة»، والذي يوجد فحسب «فكرة تاريخية واجتماعية محددة عن الإنسان»، والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي وحده هو التاريخ الذي يوجد على الحقيقة (..). لقد أخذ «داروين» هذا الإنسان اللاشخصي بين يديه ووصف تقلبه خلال عملية «الاختيار الطبيعي» حتى أصبح إنسانا قادرا على الكلام وصناعة الأدوات، يمشي منتصبا. ثم يأتي علم البيولوجيا ليستكمل الصورة، فيرينا أن كل شيء يرجع إلى الأشكال البدائية للحياة، والتي هي بدورها عملية طبيعية كيميائية .. لعب بالجزئيات. أما الحياة والضمير والروح فلا وجود لها، وبالتالي ليس هناك جوهر إنساني)[١].

نعود للحديث عن الأستاذ محمد أبو القاسم حاج حمد.. ولا يخفى على متتبعٍ حبُّ المثقف المحدَث للحديث عن «الفلسفة» وكأنه يأنف من هذه البساطة التي يمتاز بها الإسلام!!

والفلسفة كما أفهمها هي البحث عن (الحق) عن طريق العقل المجرد .. وذلك يعني ببساطة أنَّ صاحبها لن يصل إلى «أمرٍ» أو «نهي» أو «جنةٍ» أو «نارٍ» .. إلخ ... وقصارى جهده أن يصل إلى وجود «المحرك الأول».

وقد قال المفكر علي عزت بيجوفيتش:

(وصف أرسطو مهمة الفلسفة «ما تمّ البحث عنه منذ أمد بعيد، وما سيستمر البحث عنه وسيبقى خلافا». أي ما هو الكائن وبالأحرى ما

(١) السابق ص ٦٦ – ٦٧.

هو الكون؟ بلور أرسطو السؤال في كتاب الميتافيزيقيا، والذي يعتبره البعض حجر الأساس لمجمل الفلسفة. ويعتقد «هايدجر» أن ما توصل إليه «أفلاطون» و«أرسطو» تم تبنيه في كل أنواع محاولات الفلسفة بعمومها. والبعض يسمي ميتافيزيقا أرسطو «أم الكتب»، ويعتبره حجر الأساس لكل التاريخ الأوربي الغربي «توماس لادن مترجم الميتافيزيقا إلى لغتنا»)[1].

إذن «وسيبقى خلافا» تكاد أن تكون مربط الفرس .. فالفلسفة – بعيدا عن نور الوحي: لمن يؤمن بالخالق سبحانه وتعالى – تهويم في عالم الأفكار .. التي قد يهدم بعضها بعضا .. في دوران لا ينتهي.

ومع أن الحديث هنا عن المفكر «حاج حمد» إلا أنني سأبدأ بكلامٍ جاء في مقدمة الكتاب:

يقول الأستاذ الدكتور طه جابر العلواني عن المفكر «حاج حمد»:

(... وأهم من هذا أنني وجدتُ إنسانًا يأتي إلى القرآن العظيم محاولا التحرر مِن فِكره وثقافته الوضعية وأي أفكار أو فلسفات كان قد اكتسبها ليجلس في رحاب القرآن الكريم متدبرا متذكرا بفقرٍ شديد واستسلام لمحدداته ومؤشراته وموجهاته)[2].

فهل فعلا تحرر المفكر «حاج حمد» من ثقافته الوضعية؟

إنَّ المادية الماركسية تصرخ في كل سطر – أو تكاد – من كتابه .. فهو يقول:

(فالحقائق العلمية – على نسبيتها التاريخية – لا تعطي في حال تماسكها وتكاملها – أي في حال وحدتها – إلا المنهج الجدلي المادي

---

(١) هروبي إلى الحرية، علي عزت بيجوفيتش، ترجمة: إسماعيل أبو البندورة، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، الطبعة الثالثة، ص ٢٦١.
(٢) جدلية الغيب ... ص ١٥.

كما صاغته الماركسية)[1].

فهل يوافقه الجميع على أن الحقائق العلمية – على جدليتها – تنتهي إلى الماركسية؟

أعتقد أن كل مهتم بالفلسفة يعرف من هو كارل بوبر (١٩٠٢ – ١٩٩٤) والذي نُعِيَ بأنه آخر فلاسفة القرن العشرين؛ جاء في (كتاب) «حاضر العالم الإسلامي»:

(مِن بَين ما قاله كارل بوبر في هذا الصدد – سواء في هذا الكتاب «بؤس التاريخانية» أو في كتابات أخرى – أن الماركسية – مثلها في ذلك مثل نظريات علم النفس الفُرُويْدِيَّة والأَدْلَرِيَّة[2] أو سواهما – ليست بالنظريات العلمية، لأن تأكيداتها ليست قابلة للتخطيء العلمي الصارم)[3].

---

(١) السابق ص ١٦١.

(٢) نسبة إلى أَلْفِرد أدْلَر Adler, Alfred (1870 - 1937): طبيب نفسي، سيكولوجي، نمساوي، مؤسس "علم النفس الفردي" individual psychology الذي يَعتَبِر حبّ السيطرة أقوى الدوافع البشرية على الإطلاق. عُني بدراسة عقدة النقص (أو: مركب الدونية) inferiority complex ، وكان هو أول من صاغ هذا المصطلح. وأدلر يعارض التحلل النفسي (الفرويدي) في تضخيمه للجنس، مؤكدا بالعكس دور الأنا الشعوري، وفاعلية الأهداف في مقابل العوامل الطفيلية، وأن اضطرابات السلوك والأعراض العصابية تنشأ عن التعويض الزائد عما يعانيه الشخص من نقص وقصور وشعور بالدونية وما يصيب نزعته إلى التفوق والعلوم من إحباط وحرمان. من أشهر آثاره: « فهم الطبيعة البشرية » Understanding Human Nature سنة ١٩٢٧ (انظر: إبراهيم مدكور (إشراف): أعلام الفكر الإنساني ١ / ٤٦٣ : ٤٦٩، شفيق غِرْبَال (وآخرون): الموسوعة العربية الميسرة ١ / ٢٣٥ ط٢)

(٣) عن كتاب «حاضر العالم الإسلامي» عام ١٩٩١م: سقوط الماركسية (سقط رقم الصفحة).

ومـا أشـد التبـاين بـين أن تكـون الماركسـية هـي النتيجـة النهائيـة للحقـائق العلميـة – كمـا يـرى المفكـر المسـلم «حـاج حمـد» – وكونهـا ليست نظرية علمية أصلا .. كما يرى الفيلسوف غير المسلم «بوبر»!

كما يقول المفكـر المسـلم وابـن الثقافـة الغربيـة نفسـها علـي عـزت بيجوفيتش عن ماركس نفسه:

(كان ماركس تلميذا «للداروين» أكثر ممـا كـان واعيـا بـذلك. أعلـن داروين حربـه القاسـية للنـوع في العـالم البيولـوجي. و«مـاركس» أعلـن حربه غير الرحيمة للطبقة في الحياة الاجتماعية. وفي كلتـا الحـالتين فـإن الأسباب الأخلاقية لم يكن لها أي تـأثير، لا في الحـرب ولا في نتائجهـا، ولا ينتصر الأحسن إنما الأقوى. والقيم الأخلاقية تتطابق مع المنتصـر. لا تنتصر الاشتراكية بسبب بعض الأولويات الأخلاقية وإنما لأنها تمثل شكلا تقدميا للحياة الاجتماعية كما يبرهن ماركس. سبب مـاركس هـو تماما دارويني!)[١].

لا يقف أمر المفكر «حـاج حمـد» عند رأيه ذلك في الماركسـية .. بـل يسلُّ قلمه ليبكي على أطلالها .. وأنها تجربة أُجهضـت!! هـذا في كتـاب يُفترض أن صاحبه «تحزَّم بالقرآن» ونَبَذَ ثقافته الوضـعية؛ يقـول مفكرنـا الكريم:

(صحيح أن التجربة الاشتراكية قـد أُجهضـت في الاتحـاد السـوفيتي وهذا ما كنا نلاحظه منذ صدور العالمية في عام ١٩٧٩)[٢]

ويُفـرد صـفحات للحـديث عـن ذلـك الإجهـاض مستشـهدا بكـلام بعض الماركسيين .. ويمتد ذلك من الصفحة رقم ١٤٩ وحتى الصفحة

---

(١) هروبي إلى الحرية ص ١٧٢.
(٢) جدلية .. ص ١٤٩.

رقم ١٥٣.

ويقول أيضا:

(وكما بحثنا بمنطقٍ ماركسي عامل التشكل القبلي الذي يحول دون مقومات التطلع نحو الوحدة التي افترضها مروة (..) نعود وبمنطق الماركسية لدراسة أثر الصحراء ..)[١].

ويضيف في مكان آخر:

(على هذا النحو صاغت الماركسية نظريتها حول تشكل البنية الذهنية (..)، وليس لنا أن نطلب الآن سوى تطبيق هذه النظرية بحذافيرها على علاقة «القرآن» بوصفه محصلة وعي أيديولوجي على الواقع الاجتماعي)[٢].

فهل يُقال عن هذا المفكر أنه: (... محاولا التحرر من فكره وثقافته الوضعية وأي أفكار أو فلسفات كان قد اكتسبها)؟!!

ويلتقي حاج حمد مع رواد الماركسية الأوائل في تجاوز المعطى العلمي التجريبي، فيقفزون فوق الحقائق العلمية ويتجاهلونها أو يشوهون مقرراتها تحمسا لصالح المقدمات الأيدلوجية المكونة لفكرهم، فمع أنَّ «الداروينية» ركيزة من ركائز المفكر «حاج حمد» إلا أنه يأتي في لحظة ليقول:

(... بالنسبة لنا يختلف منظور التطور باختلاف الذهنية ومقومات تكوينها، فولادة الشيء من نقيضه ولادة ممكنة. ربما لا يكون «داروين» محقا في تحقيقاته حول أصل الإنسان أو مراحل نشوئه.

---

(١) السابق ص ٣٥١.

(٢) السابق ص ٣٦١.

فالمعلومة العلمية قابلة للنفي والإثبات وبالذات في تعاملها مع ظواهر تمتد في تكوينها إلى ملايين السنين)[1].

يقول مفكرنا الآخر «بيجوفيتش»:

(أكثر الأمثلة تعبيرا عن هذا الموقف يبدو في الإصرار العنيد على أن العلاقات الجنسية كانت حُرَّة حرية كاملة طول حقبة من الزمن قبل التاريخ «كل امرأة لجميع الرجال، وكل الرجال لجميع النساء». ورغم أن «إنجلز» اعترف صراحة بأنه لا يوجد دليل مباشر على أن الأوضاع كانت على هذا النحو، إلا أنه يصر على هذا الرأي في كتابه «أصل الأسرة». مِن البيِّن إذن أنَّ العامل الحاسم في القضية كان قرارا أيديولوجيا وليس الحقيقة العلمية)[2].

إذا: «إنجلز» لا يملك أدلة على نظريته .. ومع ذلك يصر عليها .. و«حاج حمد» لا يهمه في لحظةٍ ما أن يكون «داروين» مصيبا أم مخطأ!!

ويصل تشرُّب مفكرنا للماركسية إلى حدٍّ وصف الشريعة الإسلامية بأنها «شوهت وخلخلت الميلاد الطبقي»!! فيقول:

(بالطبع قد أتينا على نماذج من هذه القوانين وتطبيقاتها، على أنَّ الخلاصة في ذلك هي أن التشريعات الإسلامية قد شوهت وخلخلت الميلاد الطبقي وحَدَّت من الصراعات، فأبقت المجتمع العربي - وإلى القرن الثامن عشر الميلادي تقريبا - بمعزل عن التبلور الطبقي الحاد)[3].

---

(١) السابق ص ٦٤١.

(٢) الإسلام بين الشرق والغرب ص ٩٦، الحاشية.

(٣) جدلية .. ص ٥٦١.

وهذا الكلام يحمل قدرًا غير قليل من تكريس القداسة لماركس والماركسية وإِنْ جَرَى على ختل من القول جليل .. فالحاج حمد يقر أن وجود الطبقات ضروري لوجود النظرية الماركسية، وبالتالي فالنظرية في حرب مع كل نظام يعمل على إزالة الطبقات أو التخفيف من حِدَّة وجودها كما في الإسلام، لأن ذلك سيمنع وجود الماركسية وعملها، ومن هذا الوجه كان عداؤها للأديان وعلى الخصوص الإسلام .. فانظر كيف صار ما تعمل عليه الماركسية في مآلاتها النهائية- مجتمع الطبقة الواحدة- أمرا مبغوضا في الإسلام لمجرد أن الإسلام ابتدر بعلاج المشكلة قبل وجود ماركس على الوجه الذي يعدم الجعجعته حولها !! ...

ولا يتعلق الأمر باعتماد «الماركسية» كنهاية للحقائق العلمية فقط، بل المادية تبرز رأسها بين أسطر المفكر :

(فالنبوة تجربة عملية بيانية، والمنهج تجريدي نظري دقيق .. التجربة العملية البيانية تتعلق بخصائص فردية ومحلية ويحكمها الظرف التاريخي والاجتماعي (..) وارتباط العالمية الإسلامية الأولى بالتجربة المحمدية فكان هو القدوة والأسوة الحسنة ضمن ظرف تاريخي واجتماعي محدد يلقي بخصائصه وظلاله على التركيب العام للتجربة)[1].

ألا يعني هذا أن الظرف التاريخي والاجتماعي إذا اختلَفَ النظرُ إلى «التجربة المحمدية» - كما يسميها، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسلم - ويختلف - بالتالي - اعتباره ﷺ «قدوة وأسوة»؟!

---

(١) السابق ص ٦٢٠.

تأمل !! هل هذا الكلام - كلام حاج حمد - مديح في سياق بيان عالمية القرآن والرسالة، أم ذم مبطن فيما يشبه المدح؟ كيف يمكن الجمع بين العالمية والتاريخانية في كلام حاج حمد دون أن يعري الكلام بواعث وطوية يعرب عنها القول بعدم صلاحية التشريع لزمان الناس اليوم ؟ وأي معنى بعد ذلك يبقى في معاناة معالجة أن القرآن جاء بالتطورية قبل أن تنقدح في ذهن دارون ، فهل يكشف هذا الصنيع إلا قولًا تجمل بالسكوت عنه مَنْ فاه به على لسان من يزعم أنه يمجد القرآن ؟!.

* * *

في الفصل التالي سنرى تجلي هذه المادية التي صاغ بها «حاج حمد» فلسفته .. وذلك حين يوجه اللوم إلى الأنبياء الكرام .. وينتقدهم .. وهذا كله في إطار «التجربة المحمدية» و«التجربة الموسوية» - كما يسميهما على صاحبيهما الصلاة والسلام - ولكن قبل ذلك نختم هذا الفصل بملاحظة لـ«بيجوفيتش» وضعها في كتابه (الإسلام بين الشرق والغرب):

(مصطلح «دِين» في هذا الكتاب يشير إلى المعنى الذي تنسبه أوربا إلى «الدِّين» وتفهمه على هذا النحو، وهو أَنَّ: الدِّينَ تجربةٌ فرديةٌ خاصة لا تذهب أبعد من العلاقة الشخصية بالله، وهي عَلَاقة تعبِّر عن نفسها فقط في عقائد وشعائر يؤديها الفرد. وعليه فلا يمكن تصنيف الإسلام كدين بهذا المعنى، فالإسلام أكثر من دين لأنه يحتوي الحياة كلها)[1].

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب ص ٤٩، الحاشية.

«٣»

موقف الداروينيين من أنبياء الله ...

إذا كنا أنهينا الفصل السابق بالحديث عن «الدِّيْن» في نَظَر الثقافة الغربية بصفته «تجربة» .. فإننا نشير هنا إلى الفرق البيِّن بين «الدِّين» – بصفته وحيا من الخالق سبحانه وتعالى – وبين «الدين» كما تنظر إليه الفلسفات المادية.

الأمر في غاية البساطة .. هما طريقان لا يلتقيان أبدا؛ فالدِّين بصفته وحيًا يبدأ – في عَلاقته بالبشر – من خلق الله سبحانه وتعالى لأبينا آدم – عليه وعلى نبينا السلام – أي في تلقي الأوامر مباشرة من الخالق – سبحانه وتعالى – والكلام معه .. ثم الهبوط من الجنة .. وتباين مسيرة البشر .. بين علوٍّ مستضيء بنور الوحي .. إلى تردٍّ في دركات ظلام الجهل .. حتى ينتهي الأمر كما في الحديث الشريف: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ عَلَى شِرَارِ النَّاسِ»[1] ... أو همج كالدواب .. إلخ.

أما طريق الفلسفة المادية «الداروينية» فعلى العكس من ذلك تماما إنها تبدأ من «الأَميبا» .. صاعدة حتى ينتصب «الإنسان» على قدميه .. وصولا إلى «الإنسان الكامل» .. وشتان بين الطريقَين.

ومن نتائج الفلسفة المادية التي انتهجها مفكرنا «حاج حمد» التعامل مع الأنبياء عليهم السلام بعيدا عن مكانتهم التي وضعهم الله فيها واصطفاهم لها؛ وإنك لتعجب أشد العجب أن تجد مفكرنا الكريم يقول:

(حزمت نفسي بالقرآن، محاولا الوصول إلى (مجمع البحرين)،

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» ٤ / ٢٢٦٨ (٢٩٤٩) عن ابن عمر رضي الله عنه.

سابحا من الزوايا المحددة في الرؤية الوضعية للأمور، إلى نقطة التلاشي الغيبية ...)[1].

ثم يلقي الكلام جزافا دون أن يقف مع آداب القرآن الذي تحزم به!!

بل إنه يستعمل عبارات ربما كان من غير اللائق استعمالها مع الخالق سبحانه وتعالى، فهو يقول:

(كان الله يدرك أقصى القدرات التي أتاحها للعربي في هذا الدور العالمي)[2].

فهل يوصف الله سبحانه وتعلى بأنه «كان يدرك»؟!!

ويستعمل العبارة نفسها مع النبي ﷺ فيقول عنه:

(كان محمد من بين العرب يدرك دوره العالمي وأبعاد رسالته الحضارية الكونية)[3].

ويقول عن كليم الله موسى عليه وعلى نبينا السلام:

(إن أهمية التجربة الموسوية أنها قد منحت موسى «بُعْدًا غيبيًّا» في تفكيره للتأكيد على وجود الله في الفعل الإنساني والحركة، دون حلولية (..)، ولكنها لم تمنحه «علمًا غيبيًّا» في إطار منهجي)[4].

بل يصل به استعمال الألفاظ جزافا لدرجة أنه يصف الخالق سبحانه وتعالى بما يُوصف به البشر من «نقد» و«تحليل» فيقول:

---

(١) جدلية الغيب ..ص ١٠٩.

(٢) السابق ص ٤٠١.

(٣) السابق ص ٣٩٩.

(٤) السابق ص ٢٣٧.

(وقد تكاملت هذه المعاني بالفرضيات العكسية التي ساقها الله في الأصل نقدا وتحليلا لأوضاع الحضارات المادية الوضعية)[١].

كما يقول عن الأنبياء جميعا عليهم السلام:

(الأنبياء جميعا - مِنْ قَبلِ محمد - صعب عليهم أن يمارسوا تجاربهم الدعوية دون معجزات وخوارق)[٢].

و«صعب عليهم» هذه إنما هي إطار التجربة في منطقوها المادي.

أما كون نبينا ﷺ لم يكن شاعرًا فهذا في النص القرآني يأتي بـ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ [يس: ٦٩]، أما في إطار الفلسفة المادية عند مفكرنا فالأمر مختلف تماما، فهو يقول:

(نجدُ أَنَّ محمدًا لم يكن شاعرا، بل ظل من بُلغاء اللغة على مستوى النثر، فقد كان عقله تجريديا إلى حد كبير، يعاني النفاذ إلى عمق الأشياء، ولا يستطيع أن يقيد اندفاعه التأملي بأطر إنشائية جمالية بحتة)[٣].

فالقضية فقط في الاختلاف بين العقل التجريدي وغير التجريدي!!

ثم يعود في إطار التكرار ليكرر الحديث عن الأمر:

(فالعربي كان متفردا في لسانه تفرد الشاعر، وليس تفرد الفيلسوف، وكان «محمد» يرقى على تلك البيئة بعقليته التجريدية النفاذة التي جعلته مهيأ لتلقي المنهج الإلهي، وبحكم تلك العقلية التجريدية لم يستطع «محمد» مع فصاحته أن يكون شاعرا، وما ذلك إلا للفارق بين

(١) السابق ص ٥٨٨.
(٢) السابق ص ٤١٥.
(٣) السابق ص ٥٩٦.

عقلية يغلب عليها المعنى وعقلية الشاعر التي يغلب عليها المبنى، ولعلنا نلاحظ في النماذج المتقدمة «لابن عربي» و«الحَلاَّج» و«ابن الفَارض» غموض الشعر بتحميله المعاني التجريدية وخروجه عن تركيبته الجمالية)[1].

فالرسول ﷺ ما منعه من قول الشعر إلا «عقليته التجريدية»!! ويضرب مثلا للمقارنة بين العقليتين بالحلاج وابن عربي!!

ثم يطور الأمر ليقول أن الفرق بين الشعر والقرآن نفسه مثل الفرق بين الله والإنسان:

(فهم المفسرون في العالمية الأولى الأمر خطأ، فكما صادروا الفعل البشري بالقهر الإلهي صادروا الشعر بالإعجاز القرآني، ولا يتجاوز الأمر في حقيقته سوى فوارق نوعية كالفارق بين الله والإنسان)[2].

نسأل كيف صادر المفسرون الشعر بالأعجاز القرآني ؟ وماذا تعني المصادرة هنا ؟ وهل فعلا أنكر المفسرون أن يكون في شعر العرب فصاحة وبيان وبلاغة ، إذن كيف تترشح القرائح لإدراك بيان وبلاغة القرآن من غير مقايسة أو اعتبار ؟! واضح أنها دعاوي تساق محلولة العرى يتخفف صاحبها من تبعة البرهان ..

لكن يبقى قوله أن الفارق في النوعية كالفارق بين الله والإنسان يطوى تخففا مشينا في الموازنة ، فإن مثل هذا الكلام إنما يقال عند النظر في موازنة شعر المتنبي بما يسمى شعرا عند أودنيس ويوسف الخال !! ومقام الأدب الوقار يمنع تمثله في حق الله تعالى ، نعم هو حق لا ريب

---

(١) السابق ص ٦٣٢.
(٢) السابق ص ٥٩٨ – ٥٩٩.

فيه لو جرى على معتقد سليم في تصورات الألوهية ، فإنه ليس كمثله شيء سبحانه وتعالى ، ولكن أين لنا هذا الظن الحسن والمؤلف يذم المفسرين أن أعتقدوا علو كعب اسلوب القرآن فوق كل أسلوب ، فرفض الإطلاق وجعله مصادرة !!

* * *

نعود إلى ما أشرنا إليه من قبل حول قَفْز مفكرنا فوق بعض الآيات التي تنقُض ما ذهب إليه .. فهو يقول:

(فالاسترجاع النقدي القرآني لا يتم على مستوى تصحيح الوقائع فقط، كأن نقول أنه ليس لنوح ذرية أصلا (..) أو أن آدم قد خلق عبر توسطات جدلية)[1].

ثم كرر الكلام:

(وبتعميق البحث قرآنيا تبين لنا أن لا ذرية لنوح أصلا)[2]!

ولم يكلف نفسه أن يحلل لنا معنى قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: ٧٧]

ثم يعرّج على رعي الأنبياء – عليهم السلام – للغنم فينفيه نفيا قاطعا، فيقول:

(ليس بين الأنبياء من كان راعيا .. كل ما ذكرت النبوات استدعت الذاكرة الشعبية .. الصحراء ورعي الأغنام والتأمل، وهذا أمر يحتاج إلى مراجعة تاريخية دقيقة (..) فنوح عالم رياضيات وفلك في بابل الأولى، وإبراهيم كان من عائلات «أور» القائمة على سدانة الهيكل،

---

(١) السابق ص ٧٣.

(٢) السابق ص ٧٤.

وموسى نشأ في بلاط فرعون حيث العلوم الرياضية والفلكية، وليس هناك من رواية تاريخية موثوقة بأن محمدا كان يمتهن رعي الأغنام في صباه كما لم يثبت أنه تاجَرَ لخديجة في أموالها أو ذهب مع عمه إلى الشام على طريق بصرى)[1].

أما قوله: «وليس هناك من رواية تاريخية موثوقة بأن محمدا كان يمتهن رعي الأغنام» فهي غريبة جدا!! فالمصدر الوحيد الذي تم الحرص على نقله بدقة هو السنة المطهرة، وقد جاء فيها أنه ﷺ رعى الغنم. فعن أية رواية تاريخية يبحث؟!!

هنا تجدر الإشارة إلى أَنَّ لمفكرنا - كما لكل «داروينى» - موقفا من السنة، ليس نفيا لها على الإطلاق، وإنما زاعما ردها بالقرآن من حيث الأساس .. ثم يتوسع في نفيها، أو القفز فوقها .. كأنها غير موجودة - أو لم يطلع عليها - وسنفصل في ذلك إن شاء الله.

العجيب في النفي القاطع لرعي الأنبياء عليهم السلام للغنم أن مفكرنا لم يخبرنا ما الذي كان يفعله سيدنا موسى عليه السلام عند صاحب مدين عندما استأجره تلك الحِجَج المعدودة؟

ونقطة أخرى، يقول مفكرنا الكريم:

(كذلك لم يعتبر قوم نوح الفُلْكَ معجزة، وإلا لكانوا قد آمنوا، بل كانوا يسخرون)[2].

* أولا: مَنْ قَالَ أَنَّ السفينة نفسها كانت معجزة، وقد جاءت بعد قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ .. وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ [هود: ٣٧]، والمعجزة تأتي قبلُ لتُقيم الحجة .. أَمَا وَقَد صَدَرَ الأمرُ

---

(١) السابق ص ٢٠٩.
(٢) السابق ص ٧٦.

الإلهي بهلاك قوم سيدنا نوح - عليه وعلى نبينا السلام - فلا معنى للمعجزات.

* ثانيا: أين مفكرنا من قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَوَحْيِنَا ﴾ [هود: ٣٧]!

* ثالثا: على سبيل المثال: هل آمن قوم سيدنا صالح – عليه وعلى نبينا السلام – وقد أخرج لهم ناقةً من صخرة .. ناقة تسير وتشرب، وتحلب اللبن؟!

فقوله: «وإلا لكانوا قد آمنوا» عجيب جدا!! .. بل القرآن نفسه يقول: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء: ٥٩].

نعود لنكمل الحديث عن أكبر نتائج تبني الفلسفة المادية لدى مفكرنا «حاج حمد»؛ أعني الإساءة إلى أنبياء الله عليهم السلام، فمفكرنا يقول عن نبي الله سليمان – عليه وعلى نبينا السلام –:

(كان «سليمان» قد غضب جدًّا حين تفقد الطير ولم ير الهدهد، وما كان له أن يغضب، وما كان عليه أن يتوعد، فلو أمضى «سليمان» النظر في كيفية حشر هؤلاء الجنود له لأدرك أن الأمر قد تم بقوة التسخير الإلهي المطلق الذي لا يعزب عنه شيء (..) وإنما لحكمةٍ كان يتوجب على «سليمان» التريث لديها قبل وضع الهدهد بين تبرير الغياب أو الإعدام والتعذيب. فالخطأ حين يرتد إلى القدرة فإنما تعالجه المغفرة والرحمة وليس بالارتداد إلى السطوة، وهذا مظهر من مظاهر الفارق القائم دائما بين تصرف العبد بالقدرة الجزئية وتصرف الله بالقدرة المطلقة (..) ولو وقف سليمان لدى أقوال الهدهد لوجد فيه عبدا من عالم الطير كامل الإيمان بالله)[1].

---

(١) السابق ص ٢٠٢ – ٢٠٣.

فهل كان سيدنا سليمان – عليه وعلى نبينا السلام – يجهل أن الهدهد عبد من عالم الطير كامل الإيمان؟!!

* * *

المفكر والتبني ..

تبدو قضية التبني وانعكاساتها السلبية محورية في طرح مفكرنا الكريم، فهو يقول:

(وهناك حالة يوسف الذي تبناه العزيز، إذ لم تستطع امرأة العزيز – وهي في مقام أمه بالتبني – أن تُمسك نفسها عنه، ثم إنه «نفسيا» قد هَمَّ بهَا ولم يفعل: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ... ﴾ [يوسف: ٢٤].

وقد أشار الله إلى تبني عزيز مصر ليوسف ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ [يوسف: ٢١] وهكذا بدأ المحذور، ثم أشار الله إلى محذور آخر وهو مساكنة المتبنى لعائلة من يتبناه تحت سقف واحد، ولتدقيق هذا الأمر نصت الآية على ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا ﴾ [يوسف: ٢٣]، فالإشارة المباشرة هي إلى المساكنة، وتأتي الإشارة إلى امرأة العزيز هنا ضمنا. فالتبني له محاذيره وبالمساكنة تتضاعف المحاذير.

مشكلة التبني وحساسية الطرح:

ليس عبثا وليس لمجرد السرد التاريخي يأتي القرآن ويكشف عن هذه الوقائع الحساسة. فالله يحذرنا في القرآن حتى عن الخوض في أحاديث من شأنها كشف عورات الناس وخباياهم حتى لا يعتاد المجتمع ذيوع الفواحش بإكثار القول عن تفشيها: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩]

مع ذلك وفي حالات ثلاث فقد كشف الله أمورا لا يعلمها إلا هو – سبحانه – بالذات. فهو وحده مَنْ كان يعلم بأن ابن نوح ليس بابنه، ووحده كان يعلم أن يوسف قد هَمَّ بها نفسيا، ووحده كان يعلم ما يخفيه محمد في نفسه (..) كل هذا من أجل منع التبني والمساكنة خلافا لما يظنه كثيرون ويتوهمونه فعلا للخير..)[1].

ويعود مفكرنا ليكرر الأمر مرة أخرى:

(ولكن بأسلوب خاص ومتميز في التحليل ضمن السرد ﴿ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [يوسف: ٢٣] بما يعني تحليلا للحالة التي تمت ضمنها المراودة فالأمر ليس محض رغبة جنسية كما فهمه بعضهم)[2].

كأن «حاج حمد» نسي قوله في الصفحة ٧٨ أنها «لم تستطع أن تمسك نفسها»!!

ثم يكرر الأمرَ مرة ثالثة:

(وما كان الله ليطلعنا على خفايا نفوس الأنبياء «كمحمد» و«كيوسف» وكغيرهم «تسلية» لنا، وإنما لأمر عميق يتكافأ في عمقه مع الكشف عن هذه البواطن، فحين يكشف الله لنا في «يوسف» الصديق (أنه قد هم بها وقد همت به)، وحين يكشف لنا في «محمد» ﴿ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ ﴾ [الأحزاب: ٣٧] فليست المسالة سطحية..)[3].

---

(١) السابق ص ٧٨.

(٢) السابق ص ٣٩٤ – ٣٩٥.

(٣) السابق ص ٦٣١.

قضية سيدنا يوسف – عليه وعلى نبينا السلام – أُشبعت طرحا وخلافا، حول ﴿ هَمَّ بِهَا ﴾ ولكن الذي يستحق التوقف عنده: من أين – في كتاب الله – جاء المفكر بأن «العزيز» قد تبنى سيدنا يوسف – عليه وعلى نبينا السلام – فالآية تقول ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ [يوسف: ٢١] فهذه «أو» التي تفيد الاحتمال .. لا أعتقد أن في القرآن ما يرجح «التبني» .. وخصوصا إذا نظرنا إلى قول سيدنا يوسف – عليه وعلى نبينا السلام – ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ ﴾ [يوسف: ٢٣] ولم يقل إنه «أبي». كما أن «النسوة» لو أن عملية التبني قد حصلت لقلن – بتقديره في غير القرآن – «تراود ولدها» ... وهذا أشد مكرا ونكيرا .. كما أن سيدنا يوسف – عليه وعلى نبينا السلام – قال للرسول: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ ﴾ [يوسف: ٥٠] مما يؤكد استعمال القرآن الكريم لـ«رب» بمعنى السيد .. والله أعلم.

أما ما يتعلق بالحبيب ﷺ، وقد زعم بعض المفسرين أن الذي أخفاه الحبيب ﷺ هو «حب زينب» وقد كتب الشيخ الأمين – رحم الله والديّ ورحمه – في «أضواء البيان» في الدليل على أنه ﷺ لم يُخْفِ «حب زينب»، فقال:

(والدليل على هذا أمران:

الأول: هو ما قدّمنا من أن الله جلَّ وعلا قال: ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وهذا الذي أبداه الله جلَّ وعلا هو زواجه إياها في قوله: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ولم يبدِ جلَّ وعلا شيئًا ممّا زعموه أنه أحبَّها، ولو كان ذلك هو المراد لأبداه الله تعالى كما ترى.

الأمر الثاني: أن الله جلَّ وعلا صرّح بأنه هو الذي زوّجه إياها، وأن الحكمة الإلهية في ذلك التزويج هي قطع تحريم أزواج الأدعياء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، فقوله تعالى: ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ تعليل صريح لتزويجه إياها، لما ذكرنا، وكون الله هو الذي زوّجه إياها لهذه الحكمة العظيمة صريح في أن سبب زواجه إياها ليس هو محبّته لها التي كانت سببا في طلاق زيد لها – كما زعموا، ويوضحه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ الآية؛ لأنه يدلّ على أن زيدًا قضى وطره منها، ولم تبقَ له بها حاجة، فطلّقها باختياره، والعلم عند الله تعالى)[1].

ثم هل كان سيدنا زيد وسيدتنا زينب – رضي الله عنهما – يسكنان مع النبي ﷺ تحت سقف واحد حتى يتحدث المفكر عن أثر المساكنة؟!!.

نختم هذا الفصل بهذه الشطحات لمفكرنا «حاج حمد» فالمفكر الذي يقول عن الحبيب ﷺ أنه «أخفى شيئا في نفسه» .. هو نفس الذي يقول:

(كان الإسراء بقوة الروح المتعالية على البدن والنفس، ولم يتحقق هذا المستوى الروحي لبشر في الحياة الدنيا إلا لمحمد لمحمول اسمه «أحمد» فهو المستخلف عن الله «كونيا»، ولهذا جمع الله له بين القرآن كوعي معادل للوجود الكوني وحركته، وبين استخلافه على السبع السماوات والسبع أَرَضِين، وجمع الله بينهما

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي، إصدار مجمع الفقه الإسلامي، جدة، ٦ / ٦٤١ – ٦٤٢.

كونيا وقرآنيا ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٥ - ٨٧](١).

هنا أيضا كيف وصف «مفكرُنا» الحبيبَ ﷺ بـ«بشر» رغم أنه وصف البشر ببهائم منقرضة؟!

وهو الذي يرى الرسول ﷺ «مستخلف» عن الله في الكون!! كما أنه «مطلق كوني»:

(ومحمد بخصائص اسمه «المحمول - أحمد» هو مطلق كوني ولكن في إطار الزمان والمكان والوعي الذي «يدمج» بينهما: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾. فاتحد الاثنان، أحمد وجبريل في كلية كونية واحدة يمكن لها أن تفرض «جبرية إلهية» على الوجود كله انطلاقا من عالم «الأمر الإلهي»، لذلك لم يكن الجهاد سوى «تحريض» من أحمد لأمته، ولو أراد بقدرته الخاصة مجاهدة الآخرين لأبادهم، ولكنه اكتفى بتحقيق نبوته الخاتمة)(٢).

وهكذا يطلق مفكرنا لخياله العنان، فـ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى ﴾ تصبح استخلافا للرسول ﷺ على السماوات السبع، والأرَضين السبع!! واتحادا بين «أحمد» - ﷺ - وجبريل عليه السلام!!

* * *

في الفصل التالي - بعون الله تعالى - نرى موقف «مفكرنا» من السنة المطهرة.

---

(١) جدلية الغيب .. ص ٤١٢.
(٢) السابق ص ٤١٥.

« ٤ »

موقف الداروينيين من السنّة المطهرة ...

السؤال الذي لا بد أن يطرح نفسه: ما مشكلة «الداروينيين» مع السنة المطهرة؟!.

أعتقد أن الإجابة في غاية البساطة: القرآن الكريم نصٌّ «حَمَّالُ وجوهٍ» كما وُصف، فيستطيع المفكر الفيلسوف أن يتفلسف ما شاء له القلم أن يتفلسف .. فالنص قد يحتمل .. أما السُّنَّةُ المطهَّرَةُ فهي نصٌّ مباشر في معظمه .. وكمثال : نفي مفكرنا الأستاذ محمد أبو القاسم حاج حمد أن أيًّا من أنبياء الله – عليهم السلام – قد رَعَى الغنم يصطدم مباشرة مع قول الحبيب ﷺ الذي رواه البخاري: « مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلاَّ رَعَى الغَنَمَ »[١].

وكذلك حديث «خلق آدم»[٢] يرد مباشرة على «الداروينيين»، فكيف تعامل مفكرنا «حاج حمد» مع هذا المأزق؟

قام المفكر بالتأكيد على تمسكه بالسنة المطهرة فقال:

(وليس في قولنا ما يبطل السنة، بل على النقيض من ذلك فإننا نؤكد على ضرورة الالتزام بمرجعية السنة الصحيحة التزاما لا لبس فيه ولا غموض (..) إنه إذا لم يكن الرسول قد حدد الفجر بركعتين والمغرب بثلاث ركعات والعشاء..)[٣].

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه» (٢٢٦٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) والأحاديث في هذا كثيرة، منها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِن جَمِيعِ الأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ جَاءَ مِنْهُمُ الأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالحَزْنُ، وَالخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ».
رواه أبو داود في «السنن» (٤٦٩٣) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه. وأورده الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٣٠).

(٣) جدلية الغيب .. ص ٥٨ – ٥٩.

ثم يضيف:

(فمعالجة الأحاديث ترتبط بقضية خطيرة، فكل حديث يروى ويكون مخالفا للمنهج إنما يُبطل مصداقية النبوة الخاتمة نفسها)[١].

ويقول أيضا: (فنحن نسترجع السنة النبوية قرآنيا ولا نبطلها)[٢].

أي أن مفكرنا يقوم بعرض الحديث الشريف على فهمه هو للقرآن الكريم، فإن رأى تعارضا رد الحديث مباشرة، كما رد حديث عَذَاب المُصَوِّرِين بحجة أنَّ «أَحْيُوا مَا خَلَقْتُم»[٣] لا يمكن أن تَصدر عن النبي ﷺ وهو سيد البُلغاء فيصف «التصوير» بالخلق!

ويقول من زاوية أخرى[٤]:

(كان الرسول نفسه معجبا بشعر «أُمية بن أبي الصَّلْت»[٥] الذي قال مرة عنه أنه «سيُبعث أمة وحده» (صحيح مسلم: عن عمرو بن الشريد – ج ٧ ص ٤٨)[٦] ..).

---

(١) السابق ص ٦٠.

(٢) السابق ص ٣٤٤.

(٣) وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعَذَّبُونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ». (متفق عليه . أخرجه البخاري (٢١٠٥)، ومسلم ٣ / ١٦٦٩ (٢١٠٧) عن عائشة رضي الله عنها).

(٤) جدلية الغيب .. ص ٥٩٩.

(٥) هو أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت ، الثقفي – ح ٨ هـ): شاعر، جاهلي، حكيم. من قبيلة «ثقيف». نزع إلى التحنف في الجاهلية فهجر الخمر والأصنام، لكنه لم يتبع النبي محمدا صلى الله عليه وسلم على الرغم من أنه عُمِّرَ إلى ما بعد الهجرة النبوية. كان أكثر شعره في الزهد وحكاية قصص الأنبياء على ما جاء في التوراة. وقد جُمِعَ له ديوان شعر، وضاع أكثر شعره. (انظر: ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٢٢٧)

(٦) هذه الرواية التي ذكرها المؤلف وعزاها لصحيح مسلم في ج ٧ ص ٤٥ إحالة خاطئة فما روى مسلم هذا، ولا هي من مروياته ، وأما الذي في هذا الموضع فحديث آخر يتعلق بأمية بن أبي الصلت، هي رواية عمرو بن الشريد عن أبيه قال :

لم أستطع الوقوف على هذا الحديث .. وليست هذه هي القضية، بل القضية هي الطريقة التي «خرَّج» بها مفكرنا الحديث .. فإن الأحاديث لا تُخرج عبر رقم الصفحة والمجلد، مما يشي ببُعد مفكرنا عن علم الحديث الشريف.

ويصل الأمر بمفكرنا الكريم إلى الإشارة ضمنا إلى أنَّ «الحَمِيَّةَ» جعلتهم «يَضَعُونَ» أحاديث تؤكد وجود معجزات حسية للحبيب ﷺ، يقول:

(ثم يأتي مَنْ يَفترض له معجزات كجَرَيَان لَبن[1] من بين أصابعه،

= « استنشدني رسول الله صلى الله عليه وسلم ... » _ بمثل حديث إبراهيم بن ميسرة ، وزاد : قال : « إن كاد ليسلم ». وفي حديث ابن مهدي : «قال: فلقد كاد يُسلِم في شعره». هذا هو المروي في ٧ / ٤٥ من طبعة المطبعة العامرة ، إستانبول ، ١٣٣٤ هـ (الطبعة السلطانية ، والتي ذكر أرقامها المؤلف)، وهي تقابل ٤ / ١٧٦٧ (٢٢٥٥) بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. ولا يقال هذا في أمية بن أبي الصلت لأنه مات على الكفر، أما الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فذاك زيد بن عمرو بن نفيل (رواه ابن إسحاق في السيرة ٢ / ٩٩، والحاكم في المستدرك ٣ / ٤٩٦)

(١) لم يقل أحد أبدا بجريان لبن من بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وسلم، وإنما أجرى الله الماء، وذلك ثابت صحيح، فيما رواه جابر رضي الله عنه قال : عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة ، فتوضأ منها ، ثم أقبل الناس نحوه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما لكم »؟

قالوا : يا رسول الله ليس عندنا ماء نتوضأ به ، ولا نشرب إلا ما في ركوتك .

قال : فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده في الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون ، قال : فشربنا وتوضأنا .

فقلت لجابر : كم كنتم يومئذ ؟

قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة . (متفق عليه . أخرجه البخاري رقم (٤١٥٢)، ومسلم ٤ / ٢٣٠٧ : ٢٣٠٨ رقم ٣٠١٣)

أو تكثير خُبز[1]، ليضاهوه بمن سبقه من الأنبياء، وهؤلاء - مع غيرتهم - قد جهلوا منهاج نبوته ورسالته وخصائصه وخصائص نبوته، فاختصروه إلى وعيهم الذاتي، وهو أكبر من ذلك بكثير، وبما لا يدرك منه إلا قليلا. فهو مِن الأمر الإلهي وإليه يعود، وعصمته كعصمة القرآن:

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ١ - ٤]

ومع كل ذلك نسبوا لسنته المعصومة التناسخ مع القرآن، وخرقوا له معجزات، وقالوا: أُصيب بسحر لَبِيد بن الأَعْصَم[2]، ونادوه من

---

(١) وقد وردت في هذا وقائع كثيرة (انظر بعضها في دلائل النبوة للبيهقي ٦ / ٨٣، وما بعدها)، منها ما رواه أبو هريرة (أو أبو سعيد شك الراوي عنه) قال:
« لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة قالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادهنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: افعلوا، قال: فجاء عمر فقال: يا رسول الله إن فعلت قل الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة، لعل الله أن يجعل في ذلك.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم.
قال: فدعا بنطع، فبسطه، ثم دعا بفضل أزوادهم، قال: فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، قال: ويجيء الآخر بكف تمر، قال: ويجيء الآخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه بالبركة، ثم قال: خذوا في أوعيتكم.
قال: فأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملئوه
قال: فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة ».
(أخرجه مسلم في «صحيحه» ١ / ٥٦ رقم ٢٧)

(٢) هو لَبِيْد بن الأعصم، القرظي: يهودي، ساحر. سحر النبي صلى الله عليه وسلم حتى نجاه الله من سحره.

وراء الحُجُرَات، وافتروا على آل بيته بحديث الإفك و... و... و...)[1].

ويرى مفكرنا أن المعجزات الحسية تخص الأنبياء السابقين فقط فيقول:

(... نتيجة لأخذ بعض الأحاديث التي تبدو متعارضة مع صريح القرآن دون التدقيق الكافي في هذه الأحاديث وصحة نسبتها إلى الرسول ﷺ (..)، كما نود أن نشير إلى أن البعض ممن يجهلون هذا الفارق وحذرهم الله من الجهل به قد انساقوا وراء «حمية» عصبوية ظنا منه[2] أن خلوّ الرسالة الإسلامية من المعجزات الحسية إنما يقلل من مرتبة الرسول ﷺ إزاء مراتب الرسل الآخرين مِن الذين أتوا بهذه الخوارق، وبالذات موسى وعيسى صلوات الله عليهما فنسبوا للرسول الموقر معجزات حسية، وما أدركوا أنهم بذلك يقللون من شأن خاتم

= وسِحْر النبي صلى الله عليه وسلم صحيح ثابت، روته أم المؤمنين عائشة قالت : «سحر النبي صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله ، حتى كان ذات يوم دعا ودعا ثم قال : أشعرت أن الله أفتاني فيما فيه شفائي ؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال أحدهما للآخر : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم . قال في ماذا ؟ قال : في مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر . قال : فأين هو ؟ قال : في بئر ذروان .

فخرج إليها النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم رجع ، فقال لعائشة حين رجع : نخلها كأنه رؤوس الشياطين .

فقلت : استخرجته ؟ فقال : لا ، أما أنا فقد شفاني الله ، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شرا ، ثم دفنت البئر ». (متفق عليه . أخرجه البخاري في «صحيحه» ٣ / ١١٩٢ رقم ٣٠٩٥، ومسلم في «صحيحه» ٤ / ١٧١٩ : ١٧٢٠ رقم ٢١٨٩)

(١) جدلية .. ص ٢٢٦.

(٢) هكذا .. منه، وليس: منهم.

النبيين بجهلهم - الذي حذرهم منه الله - بالطبيعة والنوعية المفارقة للإسلام)[1].

ولأنَّ «حاج حمد» ليس من أهل الحديث الشريف - كما يبدو - فإنه يتحدث عن عدم التدقيق في أخذ الحديث .. ثم لا يهتم أصلا بأخذ «دينه» عن كذابين .. يأخذهم الحماس فيضعون الأحاديث الكاذبة، ويخدعهم اليهود فيدسون لهم حديثا يقول أن الصلاة كانت خمسين ثم خُفِّفَت إلى خمس صلوات[2] .. إلخ. فذلك من وجهة نظره يقلل من قيمة النبي ﷺ - وحاشاه - بل ربما أبطل نبوته حين يأخذ التعليمات من سيدنا موسى - عليه وعلى نبينا السلام - هذا في الوقت الذي نجد أحد أهل الحديث يذهب ليأخذ حديثا من أحدهم ... فوجده قد وضع «حصى» في إناء يهزه ليخدع به دابته .. أي أنه يكذب عليها .. فرجع ولم يسأله عن الحديث!!

بل إنهم حفظوا عن الحبيب ﷺ الوعيد الشديد لمن تَقَوَّلَ على رسول الله ﷺ.

العجيب أننا نجد «يساريًّا» سابقا بعد أن عاد إلى فكر أمته ودينها يقول عن علم الحديث الشريف:

(ثم امتدت هذه الدراسة فشملت معرفة أخلاق المرويّ عنهم وصفاتهم الشخصية والجسدية .. فيقال أنه كان كثير النسيان، أو ضعيف البصر، أو ضعيف السمع، أو كان يثق بفلان الخارجي فكان يدس عليه الحديث، أو كانت له ميول كذا وكذا .. وكل هذه

---

(١) جدلية .. ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

(٢) الحديث ثابت، متفق عليه. أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٤٩)، ومسلم ١ / ١٤٥ ١٤٦ (١٦٢) عن أبي ذر رضي الله عنه.

المعلومات كانت توضع في الاعتبار عند تمحيص الحديث وتحقيق الرواية.

من هنا نستطيع القول أن علم الحديث في مصادره المتفق عليها قد بلغ أقصى ما يمكن أن يصل إليه علم وضعي من الدقة واليقين)[١].

نعود لمفكرنا «حاج حمد» لنأخذ لقطة من «فهمه» لآية كريمة .. أعني قول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] فهو يرى أنَّ تلك الأمة ليست الأمة الإسلامية كلها، بل «العرب»، فهو يقول:

(لم تكن خاصة بالعرب وإنما كانوا هم كأمة في وضع الطليعة لأمم أخرى يحملونها لها، فعاملهم الله معاملة «جيش من الرُّسل» وليس أفرادا من أمة، لذلك لم يكونوا خير أمة «قابعة» في مكانها، ولكن خير أمة «أخرجت» للناس)[٢].

ويؤكد هذا المعنى في قوله:

(لم يطلب الله من المؤمنين اليهود أو غيرهم من الأقوام «الخروج» من ديارهم جهادا في سبيله، ولكن طلب ذلك من العرب والخروج مشقة ونفي)[٣].

بطبيعة الحال من حق مفكرنا أن «يفهم» كما يشاء ولكن هل يُسلَّم له بهذا الفهم؟

---

(١) الحق المر، محمد جلال كشك، مكتبة عمار، القاهرة، دون تاريخ للنشر، وقد كتبت المقدمة سنة ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨، ص ٢٦ – ٢٧.

(٢) جدلية .. ص ٣٧٥.

(٣) السابق ص ٤٠٦.

وبعيدا عن اختلافنا معه في فهم الآية فإن السؤال الأهم هو: نأخذ الأمر بفهم مَن؟

الذي يتبادر إلى الذهن - وكما سيفعل أصحاب كل «دين» - هو العودة إلى «المنبع»، أي إلى فهم «السلف»، وهذا قطعا لن يوافق عليه مفكرنا برأيه السلبيّ في «الفهم السلفي» أولا، وبفلسفته المادية التي ينطلق منها .. والتي ترى أن «التطور» الذي حصل للفكر البشري يجعل المتأخرين أكثر «تطورا» ونضجا عقليا، وهذا منطوق كلامه، أما نص كلامه فهو:

(هنا نقول بصراحة إنَّ الفهم السلفي للقرآن هو فهم عميق في حدود العمق المتاح .. والعمق المتاح هو أقصى ما يعطيه التكوين نفسه من استعدادات .. وهذه الاستعدادات هي ثمرة نشأة عقلية معينة .. مرتبطة بأوضاع بيئية محددة وبعلاقات اجتماعية مكيفة على جملة من القواعد: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وذلك كان وُسعهم)[١].

فـ«العمق المتاح» ربما يعني بلغة عصرنا: «على قدر عقولهم» أو «تطورها»!!

ثم يشن حملةً شعواء .. ويفتح نارَ قلمه على كلِّ الاتجاهات الفكرية والفقهية السابقة:

(... لا أعني عودة إلى العمائم ولا إلى تحكيم تلك الجماعات التي تُصدرها مراكز الأرشيف الديني التي بقيت كما هي منذ العهد الفاطمي .. ليس عودة إلى عنعنات «ابن كثير» وإلى ما ثبت وما لم

(١) السابق ص ٦٣٢.

يثبت من أحاديث الرسول. أصبح الحديث في الدين يثير الكثيرين. أولا يكفي ما فعلوه بنا؟

هل نريد أنْ نُحيِيَ مِنْ جديدٍ الخلاف حول مبايعة عليّ بين سُنة وشِيعة والعصر يتجه للقضاء عليهما؟ هل نرجع لفتاوى «ابن تيمية» أم أحكام مخالفيه؟ هل نتحول إلى قاديانية أو بهائية؟ هل نعود متصوفة أو غير متصوفة؟ ظاهرية أم باطنية؟ إخوان مسلمون أم فرق أخرى؟ مالكية أم شافعية؟ حنفية أم حنبلية؟ أشاعرة أم معتزلة؟ أم قرامطة؟ وأي الصحابة نعتمد؟ وأي القياسات نلتزم؟ وهل يُقفل باب الاجتهاد أو يفتح؟ وهل نلتحي أم نحلق؟ وهل نحجِّب المرأة أم نسفرها؟ وهل نسبح بالمايوهات أم نترك السباحة نهائيا؟ وهل يكون مرجعنا الأزهر أم النجف أم القيروان؟ ومن يُفتينا من الشيوخ؟ ومع مَنْ نقف؟ مع الملكية أم الجمهورية؟ مع هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أم مع التكفير والهجرة؟ وماذا نفعل بالتعليم الأكاديمي هل نُلحقه بدار الفتوى أم بوزارة الأوقاف؟ ومن سيشرف على مسلسلات «التلفزيون» والإذاعة شيخ الزاوية الأحمدية أم إمام مسجد تكية السلطان سليم؟ وعلى أي الأوراد سننتظم على الطريقة البرهانية الشاذلية الدسوقية أم الختمية أم القادرية أم الرفاعية أم التيجانية أم السنوسية أم البدوية أم العيدروسية؟.

والتماثيل هل ننسفها لأنها تجسيد حرام؟ واللوحات هل نمزقها لأنها صورة للروح؟ والموسيقى نكف عنها لأنها من مزامير الشيطان؟ ويُمنع الديكور في المنازل لأنه يشغل عن ذكر الله؟ وهل نعود إلى قطع اليد ورجم الزاني والزانية؟ أو جلدهما؟ وإستادات الرياضة التي لم يشارك فيها أحد من شيوخنا يوما هل نغلقها لأنها «لهو ولعب»؟)[1].

---

(١) السابق ص ٥٢١.

كنتُ سأطرح هذا السؤال ثم تراجعت: إذًا: هل نأخذ ديننا بفهم المفكر «حاج حمد»؟

بل فضَّلتُ تأخير طرح السؤال حتى أذكِّر بما خطر في بالي بعد أن قرأتُ هذا الكلام، وأعنِي دعوة سابقة للخروج من «الإسلام» والعودة إلى «الفطرة»؛ لأن «الإسلام» هو سبب المشاكل التي تعيشها الأمة!

كتب د. زكي مبارك - نقلا عن السيد فخري شهاب - (إن الأستاذ عزمي[1] دخل إحدى المدارس فقال للتلاميذ: هل تعرفون أن اختلاف السُّنَّة والشيعة أضرَّ بالعراق؟

قالوا: نعم.

قال: وكيف السبيل إلى الخلاص؟

قالوا: ذلك داء حارَ فيه الأطباء.

فقال: الداء يرجع إلى الأساس الذي قام عليه هذا الخلاف.

قالوا: وما هو ذلك الأساس؟

قال: هو الإسلام، ولو خرج العراقيون من دينهم ورجعوا إلى الفطرة لزالت أسباب هذا الخلاف!

قال الراوي: فتدخل مدرس الديانات باللوم والاعتراض، وكان لهذه المحاورة صدى في أندية بغداد.

---

(١) يريد محمود عزمي (١٣٠٦ / ١٨٨٩ - ١٣٧٤ / ١٩٥٤): من كبار الصحافيين في عصره. كان دكتورا في القانون. تغريبي. قال الأستاذ أنور الجندي: «مر الأدب العربي المعاصر بمرحلتين: الأولى: مرحلة الهدم وإثارة الشبهات: هذه المرحلة التي قام عليها طه حسين وسلامة موسى وتوفيق الحكيم وساطع الحصري ومحمود عزمي وأمين الخولي ... ». (انظر: أنور الجندي: شهادة العصر والتاريخ ص ١٧، ٩٨، أنور الجندي: نظريات وافدة كشف الفكر الإسلامي زيفها ص ١٤، ١٥)

والحكاية غريبة ولكن وقوعها من الأستاذ عزمي غير مستحيل؛ فله سوابق من هذا النوع، فهو الكاتب الوحيد الذي اعترض على أن يُنَصَّ في الدستور على أن دين الدولة المصرية هو الإسلام، وكان يسميه «النص المشئوم» في كلمات نشرها بجريدة الأهرام وجريدة الاستقلال (..). هذا الصنف من المثقفين كثير الوجود، وهو يحتمل في كثير من الأحيان، لأنه في الواقع لا يكفر بالله وإنما يثور على أوهام الناس (..). إن أهل العراق كسائر المسلمين لا يُرضيهم أن يتعرض إنسان بسوء لأصول الدين الحنيف.

ولم يكن عزمي أول من أشار بالارتداد عن الإسلام لتنقية الفطرة من أوهام المخرفين من أتباع الدين، فقد سبقه إلى ذلك الأستاذ محمد فريد وجدي[1]، لكن فريد وجدي يُقبل منه كل شيء، لأنه قضى حياته في الدفاع عن الشريعة الإسلامية، أما محمود عزمي فرجل يعلن أن إيمانه مقصور على الحقائق التي يؤيدها العلم الحديث، ومن أجل هذا يقع هجومه على الإسلام موقعا غير مقبول)[2].

أعود لطرح السؤال: هل نأخذ ديننا بفهم المفكر: محمد أبو القاسم حاج حمد؟

الجواب: وما المانع؟!!

---

(١) هو محمد فريد بن مصطفى وجدي بن علي رشاد، المعروف بمحمد فريد وجدي (١٢٩٥ - ١٣٧٣هـ): باحث، اشتهر بكتابه «دائرة معارف القرن الرابع عشر / العشرين». ولد ونشأ بالإسكندرية، واشتغل بالصحافة، وتولى تحرير مجلة «الأزهر»، وأصدر مؤلفات في مواجهة التغريب والاستشراق منها: «تطبيق الديانة الإسلامية على نواميس المدنية»، و«المرأة المسلمة» في الرد على كتاب «تحرير المرأة» لقاسم أمين. (انظر: الزركلي: الأعلام ٦ / ٣٢٩)

(٢) ليلى المريضة في العراق، د. زكي مبارك، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، ٢٠١٢ / ١٤٣٣هـ الطبعة الأولى، الجزء الثاني، ص ١٩١ - ١٩٢.

ظل الرجل على امتداد كتابه يزكي نفسه وكتابه، والذي يرفض أن يضيف إليه - في طبعاته اللاحقة - أو يحذف منه! أقول ... كأنه لا يأتيه الباطل ... إلخ؛ يقول مفكرنا:

(أما كتاب «العالمية» فلم أضمنه هذه الحوارات والإشكاليات إذ أبقيت على نصه كما هو في طبعته الأولى، فهو ليس كتابا يستند إلى علوم تجريبية أو إلى فلسفات وضعية لأعدل فيه وأضيف تبعا لما يطرأ من اكتشافات ومستجدات، فهو كتاب «تأسيسي» يستند إلى رؤية قرآنية)[1].

ومرة أخرى يتحدث عن الفارق بين وعي السابقين ووعينا «نحن» وإن كانت «نحن» هنا لا تعني غير مفكرنا:

(الوعي في عصره إذ إنه خاصية ملازمة لمراحل التطور البشري، ولم يكن العربي ولا غير العربي بقادر على أن يخرج عن تلك الخصائص التي تكونه. وقد أخذوا من القرآن - كما قيض الله لهم - ضمن خصائصهم ووعيهم - أي فهموه كما ينبغي لهم أن يفهموه، أما نحن فنعبر إلى القرآن من موقع تاريخي مختلف)[2].

ثم يكرر الحديث عن «نحن» والتي لا تتجاوز مؤلف الكتاب:

(فنحن لا نعاني مأزق المجددين ضمن الخصوصية التراثية أو خصوصية الجغرافية البشرية، وليس شاغلنا مخاصمة الشرق للغرب، فهنا عالمية في عصر العلم، شاغلنا فيه هو مأزق الإنسان الحضاري والاستلاب الذي يجرده من مطلقه وكينونته، سواء في الشرق أو

---

(١) جدلية ... ص ١١٠.

(٢) السابق ص ٦٣٣.

الغرب، من جزر اليابان وإلى الجزر البريطانية، وامتدادا عبر الأطلسي، مستهدفين استعادة هذا الإنسان إلى مطلقه وإلى وعيه الكوني المطلق.

فكتابنا هذا يتمحور حول مشروع حضاري إنساني عالمي متكامل في مواجهة الاستلاب ..)[١].

لا زال مفكرنا يصفنا بـ«البشر» أي البهائم المنقرضة!! رغم وجود «الآدمية» و«الإنسانية» التي عاد فاستعملها!!

على كل حال من «نحن» إلى «منهجنا» يقول «حاج حمد»:

(إن منهجنا وبلا أدنى شك يعتمد على نوع من الحكمة التأملية التي تربط بين قدرات العقل الذاتية باعتباره جملة وعي حساس وبين مكونات القرآن باعتباره الوعي المعادل للحركة الكونية في صدوره عن الله)[٢].

وحول فهم الإسراء والمعراج يقول:

(لقد اضطربت أفهام الناس واختلفت منظوراتهم بصدد ليلة الإسراء، ولم يستنطقوا الكتاب الكوني المحيط «القرآن»، فأخطئوا في الربط بين الإسراء والمعراج (..)، وكذلك أخطئوا حين ربطوا بين الإسراء والمعراج وفريضة الصلاة)[٣].

ثم يطلق سهامه على المفكرين العرب المحدثين، أي الذين يشاركونه «التطور» الذي حصل للعقل البشري من تلك الفترة المبكرة .. نسبيا .. فيقول:

---

(١) السابق ص ٢٧٧.
(٢) السابق ص ٤٥٤.
(٣) السابق ص ٤٠٨.

(في طريقنا إلى العالمية الجديدة يبدو دور المفكرين العرب متواضعا إلى حدود كبيرة، متواضعا على مستوى مناهجهم الفكرية، وعلى مستوى طموحاتهم القومية)[١].

أي أنهم بلا منهج .. وبلا طموح !!

ثم يجمع بين الإسلاميين والقوميين فيقول:

(وكلاهما - «القوميون» و«الإسلاميون» - مخطئ في طرحه، لأنهما لم يتناولا جدلية تركيب الشخصية العربية تاريخيا)[٢].

وحتى الماركسيين لم يسلَموا:

(لهذا تخبط الماركسيون وغيرهم كثيرا في محاولاتهم تصنيف النظام الاقتصادي الإسلامي، كما سبق وأن تخبطوا في فهم المقومات الغيبية للتاريخ العربي - الإسلامي، وكما يتخبط القوميون والإسلاميون معا في فهم خصائص الشخصية العربية، نجد التخبط واضحا في ما كتبه حسين مروة مثلا)[٣].

ثم يضع الناس جميعا في إطار العجز عن الفهم:

(لم يستطع أحدٌ أن يتبين أن إعادة ترتيب الكتاب والتي تمت بأمر توقيفي من جبريل، كان الغرض الأساسي منها هو تكريس شكل الوحدة المنهجية للكتاب)[٤].

ويقرر أن فهم القرآن يحتاج إلى جهد .. فيقول:

---

(١) السابق ص ٤٤٧.
(٢) السابق ص ٤٧٥.
(٣) جدلية ... ص ٤٨٩.
(٤) السابق ص ٦٥٦.

(القرآن أكبر وأبعد وأعمق من هذا كله، ويتطلب جهدا لا ترقى إليه إلا النفس الجميلة التي تندمج بوعيها وحدسها في مكنوناته، لتنفذ إلى الوحدة عبر الكثرة، وإلى الكلية عبر الأجزاء، أما القول بخلاف ذلك فمثله مثل الحمار يحمل أسفارا، أو كمثل بعض الرسامين الذين يموت الموضوع الفني على لوحاتهم دون حركة ..)[1].

مَنْ هِيَ هَذه النفس الجميلة التي تستطيع أن ترقى بوعيها لكنه القرآن وأسراره ؟ .. يقول مفكرنا:

(لماذا خصنا الله في هذا العصر بالرؤية المنهجية للقرآن؟ ولماذا يختلف أسلوبنا «التحليلي» في التعامل مع القرآن عن الأسلوب «التفسيري» التقليدي؟ وبمعنى آخر: لماذا نلجأ نحن إلى الوحدة الناظمة، في وقت لجئوا فيه هم إلى التعامل مع الكثرة؟)[2].

نختم هذا الفصل بتكرار ما سبق أن اقتبسناه من كلام مفكرنا .. أقصد قوله:

(هنا نقول بصراحة أنَّ الفهم السلفي للقرآن هو فهم عميق في حدود العمق المتاح .. والعمق المتاح هو أقصى ما يعطيه التكوين نفسه من استعدادات .. وهذه الاستعدادات هي ثمرة نشأة عقلية معينة .. مرتبطة بأوضاع بيئية محددة، وبعلاقات اجتماعية مكيفة على جملة من القواعد: «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ....» البقرة ٢٨٦. وذلك كان وُسعهم)[3].

---

(١) السابق ص ٥٣٠.
(٢) السابق ص ٦٥٥.
(٣) السابق ص ٦٣٢.

رغم الاختلاف مع وجهة نظر «حاج حمد» إلا أن الأمرَ يبدو وكأن يحترم السابقين، بل ويعتذر لهم .. ولكننا نجده فجأة يتحدث عن «مرور اللئام» فيقول:

(لم يتوقف العلماء المؤرخون عند تلك الظاهر اللغوية «الغيبية»، كما لم يتوقفوا لدى «غيبيات» المعارك (..) مروا عليها سريعا وأحيانا مرور اللئام)[١].

ويقول أيضا:

(إن الذين فهموا الارتباط بالغيب باعتباره تعطيلا لعالم الحسّ لا يدرون شيئا لا عن الحس ولا عن عالم الغيب)[٢].

أما الحوار - ليلة الإسراء والمعراج - الذي جاء في كتب الحديث الشريف بين سيدنا رسول الله ﷺ وبين سيدنا موسى عليه السلام حول الصلاة، فإن مفكرنا يقول عنه:

(هذا قول يجمع بين السخافة والبطلان)[٣].

كما رأينا مفكرنا يصف غيره بأنه «كالحمار يحمل أسفارًا» !!

* * *

في الفصل التالي نلقي نظرة على موقف مفكرنا من «الحدود الشرعية».. فإلى هناك.

---

(١) السابق ص ٣٨٩.
(٢) السابق ص ٢٨٥.
(٣) السابق ص ٤١٨.

«٥»

موقف الداروينيين من الحدود الشرعية ...

من القضايا المفصلية في كل فكر إسلامي يطرح فلسفة جديدة أن نتبين موقف صاحبه من «الحدود الشرعية»، فهي مؤشر واضح على توجه الكاتب، ومدى تناغمه مع شُبه المستشرقين في قضايا الحدود.

في حالة مفكرنا «حاج حمد» فإنه يؤكد بشدة أن التشريع سلطة إلهية، فيقول:

(... وسلطة التشريع هي سلطة إلهية وليست نبوية وليست بشرية .. ولا يمكن أن تنالها بالقياس ولا بالإجماع ولا باتفاق السلف الصالح، فالله وحده هو الذي يحيط علما بدقائق مصدر التشريع «منهجية الحق»، فقد حرم الله من قبل على اليهود «طيبات» أحلت لهم، ورد الأمر إلى تعنتهم وظلمهم، ولم يرده إلى القياس أو إلى قاعدة الضرر: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٠])[١].

بطبيعة الحال هذه عجيبة أخرى من عجائب مفكرنا، فهو يريد من الله – سبحانه وتعالى – أن «يقيس» والفقهاء يقيسون على أحكامه سبحانه وتعالى .. فعلى أحكام من سيقيس الله سبحانه وتعالى؟!!

ويؤكد «حاج حمد» حاكمية الله – سبحانه وتعالى – كذلك في مسالة الربا .. فيقول:

(كما لا نستطيع أن نتأول ما ورد فيه «التحريم» فنبيح «الربا» تحت أي اسم من الأسماء أو شكل من الأشكال؛ تشريعات الحرام تبقى

---

(١) جدلية الغيب.. ص ٦٢٣.

كالمنهج ثابتة لا تتغير في أي زمان أو مكان إلا ذلك الاستثناء الذي أشار إليه الله في حق بني إسرائيل)[1].

هذا كلام يوزن بالذهب في باب التمسك بأوامر الله كما جاءت عنه سبحانه وتعالى.

وحتى على المستوى العقلي البحت يحذر مفكرنا من كبيرة الزنا .. ويرى أنها - لو تأمل البشر - تستحق أقسى العقوبات أي الرجم:

(فما بيّنه اللهُ لنا مِن هذه الحالات إنما يشكِّلُ خلفيات ضرورية لتحريم الزنا من ناحية، ولمنع التبني من ناحية أخرى. فالمطلوب هنا بيان ذلك منهجيا بوجه مدارس اللبرالية الإباحية التي تفكك مسلمات التكوين العائلي (..) فإذا فشا الزنا في القوم وفشا التبني أورثوا عائلاتهم انحرافات لا تحصى ولا تحصر. ولاكتشف الناس أن عقوبة الرجم أولى بالزاني من عقوبة الجلد لولا أنَّ شرعة الإسلام ناسخة لشرعة التوراة وتقوم على التخفيف والرحمة)[2].

يفهم من هذا الكلام أن مفكرنا يرى أن عقوبة الزنا هي الجلد - دون أن يفرق بين مُحصَن وغير مُحصَن - ثم نجده في موضع آخر يتحدث عن «تكفير» الله لجميع سيئات المسلمين ما عدا حالتين تمسان الذات الإلهية والبيت المحرم!! يقول «حاج حمد»:

(فالتكفير يلحق بالمسلمين في هاتين الحالتين فقط وهما مما يمس بالذات الإلهية المحرمة والبيت المحرم، أما ما عدا ذلك فيكفر الله نفسه السيئات عن المسلمين بما يصيبهم به من نقائص في صحة أو مال

---

(١) السابق ص ٦٢٣.
(٢) السابق ص ٧٩.

أو ولد: ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٧١])[1].

وكأن حديث مفكرنا عن رجم الزاني .. لو تأمل البشر .. وتحريم الربا الذي لا يقبل الجدل، أو تحت أي مسمى من المسميات.. أصبح خافتا هنا!!

ثم يلمح مفكرنا إلى مأزق المشتغلين بالدعوة حيال «الحدود» فيقول:

(كل «مشتغل» بالدعوة الإسلامية خارج الإطار الجغرافي التقليدي للمسلمين سَرعان ما تواجهه مشكلة العقوبات البدنية كقطع اليد والرجم والجلد .. في هذه الحالة يلجأ إلى كل أنواع المبررات المنطقية ليؤكد على ضرورة هذه العقوبات منطلقا في دفاعه عنها كونها أمرا إلهيًّا غير قابل للتغيير، وقد أثبته الله في نصوص كتابه)[2].

إذًا كيف يحل «مفكرنا» هذه المعضلة؟

يكتب مبتدأ بآية كريمة:

(يقول الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٤٨ ﴾ [المائدة: ٤٨]

---

(١) السابق ص ٢٧٣.

(٢) السابق ص ٦٤٥.

تنص هذه الآية على معنى خطير في التشريع إذ تقول ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ ولتحليل تركيب هذا النص يمكن إيراده على نواحٍ شتى لاستبانة الفارق في المعنى .. ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ في هذا المبنى المحرف يعني أن الله قد قيد التشريع به وأنزله أمرا دينيا دون الرجوع إلى أبعاد أخرى .. هذا معنى (لكل منكم جعلنا).

أما النص بـ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ ﴾ فيعني أن الله يرد التشريع إلى ﴿ مِنكُمْ ﴾ أي: جعلنا التشريع منكم، أي: مطابقا لخصائصكم وتكوينكم وأعرافكم. وبمعنى أكثر تحديدا أن الله ينزل حكمه متوافقا مع أخلاقيات الواقع وسلوكياته ضمن توافق تام مع الظرف التاريخي. فالشرعة والمنهاج هما استخلاص إلهي مقيد بشخصية الواقع، وقد أراد الله – عبر هذا النص – أن يطلعنا على نسبية التشريع المنزل تبعا للحالات التاريخية والأوضاع الاجتماعية المختلفة)[1].

وكأنَّ مفكرنا ينسف قوله السابق:

(وسلطة التشريع هي سلطة إلهية وليست نبوية وليست بشرية .. ولا يمكن أن تنالها بالقياس ولا بالإجماع ولا باتفاق السلف الصالح، فالله وحده هو الذي يحيط علما بدقائق مصدر التشريع «منهجية الحق»)[2].

وقوله الآخر:

(كما لا نستطيع أن نتأول ما ورد فيه «التحريم» فنبيح «الربا» تحت أي اسم من الأسماء أو شكل من الأشكال.

---

(١) السابق ص ٦٤٦.

(٢) السابق ص ٦٢٣.

تشريعات الحرام تبقى كالمنهج ثابتة لا تتغير في أي زمان أو مكان إلا ذلك الاستثناء الذي أشار إليه الله في حق بني إسرائيل)[1].

في «تحليله» للآية ٤٨ من سورة المائدة يصبح الربا – وغيره – متعلقا بالظرف التاريخي ..«وأخلاقيات الواقع وسلوكياته ضمن توافق تام مع الظرف التاريخي» حسب نص كلام مفكرنا!!

نعود لتحليله لآية سورة المائدة، فنجده يوسع الفكرة بالقياس على بيئة اليهود التي تنزلت فيها العقوبات التي فُرضت عليهم، فيقول:

(إنَّ نظرة على البيئة التاريخية وأنماط العقوبات في ذلك العصر اليهودي توضح لنا أن ذلك الشكل من العقوبات كان دارجًا في الحَوض الحضاري التقليدي. فالحضارة العمورية السابقة على الديانة اليهودية كانت قد اختارت نفس هذه الأشكال، وقد اشتهر بها «قانون حَمُورَابِي حوالي ٢١٠٠ ق.م» (..) فمن نفس تلك البيئة التاريخية وعلى نفس نمطها جاء التشريع، وقد أثار هذا التداخل بين الأعراف الوضعية والتشريعات الدينية خيال بعض علماء الأنثروبولوجية مما دفعهم للاستنتاج بأن الدين ليس سوى حامل أيديولوجي لثقافة تاريخية محددة (..).

إن الثابت في التشريع هو«مبدأ العقوبة» أو الجزاء، أما الأشكال التطبيقية لهذا المبدأ فموكولة لكل عصر على حسب أوضاعه وأعرافه وقيمه. بهذا يستوعب القرآن متغيرات العصور ويبقى كما أراد له الله صالحا لكل زمان (..). إن هذا القول يفجر قضية في الوعي الديني المعاصر برمته هي مسألة تتعلق بجوهر الدين وعلاقته بأشكال الوعي

---

(١) السابق ص ٦٢٣.

المختلفة؛ فالأديان جميعا قد تنزلت في مرحلة تاريخية معينة في تطور الإنسان)[1].

وهكذا يقرر مفكرنا هنا مع الأنثروبولوجيين أنَّ «الدينَ» ليس أكثر من حامل أيديولوجي لثقافة تاريخية محددة!!!

وهكذا يتطور الأمر مع مفكرنا من التشديد على كبيرة الزنا .. وأن التحريم مسألة خاصة بالله سبحانه وتعالى وحده .. ليصبح الأمر: «أما الأشكال التطبيقية لهذا المبدأ فموكولة لكل عصر على حسب أوضاعه وأعرافه وقيمه» حسب كلامه !!

وبغض النظر عن اختلافنا الشديد مع ما طرحه «حاج حمد» هنا إلا أنَّ هذه ليست قضيتنا هنا، ولكن السؤال:

هل كان مفكرنا أمينا مع فلسفته المادية؟ بعد تناقضه من ما قرره أولاً من أنَّ ما حرَّمَهُ اللهُ – سبحانه وتعالى – لا يمكن أن يحله أحدٌ لأن الله – سبحانه وتعالى – هو المشرِّع .. والاستثناء الوحيد متعلق بحالة خاصة هي اليهود ؟

سنأخذ ثلاثة أمثلة تُظهر أن مفكرنا لم يكن أمينا مع فلسفته المادية:

○ **أول الأمثلة** .. يتعلق بما حدث في سقيفَة بني سَاعِدَة بعد انتقال الحبيب ﷺ إلى الرفيق الأعلى – إنا لله وإنا إليه راجعون – ويشن «حاج حمد» حملة شعواء على ما حدث في السَّقِيْفَة، فيقول:

(ثم استرجعت السماء نورَها المحمدي، وأبقت نورها القرآني، فانعدمت الصلة بين العرب ووسيط المنهج، فتنازعوا الأمر منذ أول يوم في السقيفة. فضاقت أولي الأمر {منكم} لتصبح من بينكم

(١) جدلية الغيب .. ص ٦٤٧.

«مهاجرين فقط» ثم ضاقت فأصبحت (فيكم – مجلس الشورى الذي شكله عمر بمعزل عن الأمصار لاختيار من يخلفه)، ثم ضاقت فأصبحت «عليكم – بالوراثة الأموية العباسية». إنها فتن كالليل المظلم. وقد كان الرسول على علم بتفاصيلها. إذن لماذا سكت عنها؟

إنه الفرق بين عقلية تدرك المنهج وعقلية تعمل بموجب القدرة العملية. فالمنهج يعني الالتزام بمقتضيات السلام والوحدة في التجربة البشرية. وبمعنى آخر: العلو على مطلقات التنابذ في شكلها القبلي.. بين الأنصار والمهاجرين، وبين القبائل فيما بينها، وبين العرب وغير العرب.. فعبارة «السقيفة» المشهورة: «منا أمير ومنكم أمير»! هي عودة إلى حالة التنابذ. أي إلى خارج المنهج بعد فقدان العملية الوسيطة (..) إذن لم يكن من مهمات النبي أن يتجاوز بوعيه واقع مرحلته وخصائصها الفكرية .. فظل الرسول حافظا للعلاقة ما بين المنهجية في مطلقها والتطبيق في نسبيته، أي في حدود إمكانيات الفهم العربي للقرآن)[1].

بل يعيد بداية الانحراف – التناقض – عن الإسلام إلى .. «السقيفة» أيضًا!! فيقول:

(ولا ترجع جذور التناقض إلى سلسلة الانحرافات الواضحة التي عددها المجددون في المراحل المتأخرة كشرب الخمر والزنا والقتل العمد، وإنما ترجع إلى البداية منذ وفاة الرسول وفي سقيفة بني سَاعِدَة .. هناك البداية، ثم أخذ التناقض في الاتساع بين المنهج الإلهي والسلوكية الحضارية (..) كم هي مأساة أن يموت «عثمان» بيد بعض أبناء الصحابة، وأن يقود الصحابة وأبناؤهم من بعدهم حملات

(١) جدلية الغيب .. ص ٦٣٧ – ٧٣٨.

التصفية الدموية التي ظللت الجزيرة العربية وما بين خراسان والمغرب بألوان قاتمة من الدماء)[1].

ومرة ثالثة ... سقيفة بني ساعدة .. فيكتب «حاج حمد»:

(ولكنه حذر كثيرا من فتن تأتي بعده«كقِطَعْ اللَّيْلِ المُظْلِم»/ ومع ذلك تركهم وجها لوجه مع القرآن، فطفحت السلبيات في سقيفة بني ساعدة)[2].

لا أدري كيف لم ينتبه مفكرنا الكريم إلى أنه بهذا الكلام يعلن فشل المنهج وسقوطه سقوطا مدويا.. لحظة غياب «الوسيط»، أي«القدوة»، أي الحبيب ﷺ!!.

ثم ما الذي كان ينتظره الفكر المادي من قوم يعيشون في القرن السابع الميلادي؟ غير توريث الحكم كما هو الحال في «البيئة» المحيطة .. وهو الأمر الذي استمر ربما حتى بعد قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩، أي بعد ألف سنة من سقيفة بني ساعدة!!.

ولكن الواقع يقول أن تجربة سقيفة بني ساعدة كانت تستحق وقفة أكثر رحمة وعدلا من مفكرنا الكريم .. ففي ظل «بيئة توريث الحكم» لم يورث الصديق رضي الله عنه الحكم لابنه .. ولا فعل ابن الخطاب رضي الله عنه ذلك .. بل وضع «مجلسا» .. كما لم يورث سيدنا عثمان رضي الله عنه الحكم .. وحتى سيدنا علي عليه السلام .. وهو في ذلك الموقف الحرج .. يقول عن مبايعة سيدنا الحسن – عليه السلام – : «لا آمركم ولا أنهاكم».

---

(١) السابق ص ٦١٩.
(٢) السابق ص ٦٣٣.

أين نجد مثل هذا في بيئة القرن السابع ؟!!

ليس هذا فقط .. بل الأمر بدأ برجل من فخذ صغير من قريش .. «بنو تَيْم» .. ثم تلى ذلك رجل من فخذ آخر ليس كبيرا بدوره .. «بنو عدي» .. ثم جاء دور الفخذين المتنافسين في الجاهلية .. «بنو أمية» و«بنو هاشم» .. فهذه الإيجابيات التي لا تتناسب وأعراف بيئة القرن السابع لم يرها مفكرنا الكريم!!.

○ **المثال الثاني** .. لعدم وفاء «حاج حمد» لفلسفته المادية هو زواج سيدنا رسول الله ﷺ من أمنا عائشة رضي الله عنها .. وهي صغيرة .. أي أنه يكرر شُبه المستشرقين مرة أخرى .. بل وصل الأسى بمفكرنا أنه قال أننا نتمنى لو لم يتزوج الحبيب ﷺ من أمنا رضي الله عنها وهي في تلك السن الصغيرة!!.

العجيب أن مفكرنا يتحدث عن تقبل «بيئة» ذلك العصر لزواج الصغيرات .. ثم ينتقد الأمر بعقلية بيئة مختلفة وعصر مختلف!! لماذا والأمر يتماشى مع البيئة؟!.

يقول مفكرنا:

(فمثلا كانت التجربة العربية التي نشأ ضمنها «محمد» تتقبل بواقعية تامة الزواج من صغيرات السن، وقد تزوج «محمد» «عائشة بنت أبي بكر الصديق» وهي في السابعة، ونحن ننظر الآن من منطلق قيم مختلفة، وكم يودّ بعضنا ألا يكون الرسول قد فعل ذلك .. بل هناك رجال في عصرنا يبلغ أحدهم السابعة والسبعين ويُقدِم على الزواج من فتاة صغيرة تعتبر ممارسة الجنس معها في عالم اليوم – حلالا أو حرامًا – أمرا غير مقبول (..)، هل كان «محمد» مخطئا؟ أو هل كان مصيبا؟ مثل هذه الأسئلة التي لا تبصر من الأمور سوى الأبيض أو الأسود تنم

عن عقلية غير قادرة على الإحاطة بالأمور من أهم جوانبها (..) «فمحمد» في زواجه من «عائشة» كان يصدر من شرعية اجتماعية ذات بُعد أخلاقي معين، متعارف عليه في واقعه)[1].

إذا تجاوزنا محاكمة المفكر «حاج حمد» لماضينا أو عصر الرسول ﷺ على مقاييس الثقافة الغربية اليوم .. فهل ما ذهب إليه «حاج حمد» هو المشهد كله؟ رغم أنه ينطلق من ثقافة مادية .. أباحت مؤخرا «زواج الشواذ» .. فهل نربط «ديننا» وتشريعاتنا بهذه الثقافة التي تسمح «أعرافها» الآن بزواج الشواذ؟!!

ليس هذا فقط بل إن الثقافة الغربية نفسها .. وفي هذا العصر .. قد لا توافق مفكرنا على ما ذهب إليه .. وهي تجد نفسها في مأزق حمل المراهقات، رغم كل الجهود المبذولة للتثقيف وصرف موانع الحمل .. إلخ.

على كل حال كتب بيجوفيتش:

(العلاقة الجنسية مع شخص تحت الرابعة عشرة في إيطاليا هي عمل إجرامي. وتم في عام ١٩٨٥م إطلاق مبادرة لتخفيض هذا الحد إلى سن الثانية عشرة)[2].

كما يضيف عند حديثه عن الدعارة في البرازيل:

(كثير من هؤلاء الصغيرات يمُتن من مرض السل، والجوع، والسكين، والمسدس، والأمراض الجنسية .. بين سن ١١ – ١٢ عاما تلد الفتيات الطفل الأول، ويضعنه أمام أبواب الكنيسة، والفقيرات يضعنه في الشوارع، أو في الملاجئ ..)[3].

---

(١) السابق ص ٦٢٦ - ٦٢٧.

(٢) هروبي إلى الحرية، ص ١٣٥ – ١٣٦.

(٣) السابق ص ٢٠٧.

وإلى البلد المحافظ بريطانيا:

(لندن – وكالات الأنباء:

(ومن جهة أخرى وافق نواب الحزب في البرلمان ومعهم أغلب نواب الأحزاب الأخرى على تعديل قوانين الشذوذ الجنسي في بلادهم وتخفيض سن «السماح» به إلى ١٨ عاما بدلا من ٢١ عاما. والغريب أن التعديل الجديد صدر بأغلبية ساحقة بعد جلسة عاصفة شهدها مجلس العموم البريطاني (..) حيث وافق عليه ٤٢٧ نائبا مقابل ١٦٢ نائبا صوتوا ضده. والأكثر غرابة إن إحدى النائبات (أدوينا كاري) في الحزب المحافظين لم تكتف بالتخفيض المقترح بل إنها دعت إلى تخفيض أكثر ليصبح ١٦ عاما ..)[١].

وهكذا في الوقت الذي يوجه «حاج حمد» سهامه إلى ماضينا متأسفا على الزواج من الصغيرات متأسيا بالثقافة الغربية .. تقوم الثقافة الغربية نفسها .. بتخفيض سن السماح بذلك .. بل وتقر «زواج الشواذ»!!

لكن ما لا يهتم له حاج حمد هو أن تشريع زواج الصغيرة علاوة على أنه كان بتوجيه إلهي للنبي صلى الله عليه وسلم في خصوص عائشة رضي الله عنها كما جاء في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم « أُرِيتُكَ فِي الْمَنَامِ مَرَّتَيْنِ أَرَى رَجُلا يَحْمِلُكَ فِي سَرَقَةِ حَرِيرٍ ، يَقُولُ : هَذِهِ امْرَأَتُكَ ، فَأَرَاكِ ، فَأَقُولُ : إِنْ كَانَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ يُمْضِهِ »[٢] ورؤيا الأنبياء وحي ، فإن زواج غير البالغ قرآن يتلى ! ألم يقل الله تعالى في عدة المطلقات

---

(١) جريدة الشرق الأوسط، ١٣/ ٩/ ١٤١٤هـ = ٢٣/ ٢/ ١٩٩٤م، العدد ٥٥٦٦.

(٢) أخرجه البخاري في « الصحيح » برقم (٤٧٩٠).

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ [الطلاق : ٤] ألم يقل سبحانه وتعالى ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾[النساء : ١٢٧]وهل اليتيمة إلا من كانت دون سن البلوغ ، فالبالغ لا يطلق عليها يتيمة لا لغة ولا شرعا ...

سؤال أخير:

كيف ترفض «الداروينية» زواج فتاة .. هيئتها «الطبيعة» للحمل والولادة ؟!! ألا يعني ذلك أن جسد تلك الفتاة قد «تطور»إلى الدرجة التي تسمح لها أن تصبح «زوجة»؟!!

○ **المثال الثالث** .. ونحن دائما مع شبه المستشرقين نفسها، فمفكرنا يقول:

(فالمرأة يظهرونها غير متكافئة مع الرجل في الحقوق، ومتكافئة معه في الواجبات، فشهادتها نصف شهادة الرجل، وحظ الرجل في الميراث مثل حظ الأنثيين)[1].

لم يوسع «حاج حمد» الحديث حول ميراث المرأة، لذلك لا يلزم أن نوسع نحن أيضا الحديث عن وجود حالات ترث فيها المرأة مثل الرجل، وأخرى ترث أكثر مما يرث الرجل – كما كتبنا في الرد على تلك الشبهة تحت عنوان: «أستاذة سناء كيف حصرت النساء في البنت؟!!» – ما بعد زواج الصغيرات، وميراث المرأة سوى تعدد الزوجات، ولمفكرنا فيه وجهة نظر .. وهي أن التعدد أبيح ليتزوج الرجل بامرأة لديها أيتام .. والأمر في إطار الخوف من الكوارث التي تحدث عند مساكنة المتبنى!!

---

(١) جدلية الغيب ص ٣٩.

يقول «حاج حمد»:

(قد جاءت عبارة ﴿ فَانكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء: ٣] مقيدة غير أن العرب أدركوها مطلقة.

هنا تضمين إلهي لحكمة مكنونة، فالوصي على الأيتام حين لا يكون زوجا لأمهم يجد نفسه معها بحكم السقف في جو عائلي واحد - كموقف «يوسف»، وجعل التصرف في مال اليتيم ينطلق من أبوة حقيقية عبر الزواج من أمهم فيختفي عنصر التبني.

فهذه السورة تبتدئ بالتركيز على النفس الواحدة والعلاقة الثنائية، ثم تبيح التعدد ضمن وضع اجتماعي محدد لا يتعلق برغبة الزواج المجردة كما ذهب المفسرون وإنما بالعناية بالأيتام وحدد الله للعدد أربعة فقط.

في هذه الحالة يصبح للزوج الحق في القيام بأموال الورثة القصر مع اشتراط الرزق الجاري عليهم والكسوة لهم، ومعاملتهم معاملة حسنة تزيل عنهم الشعور باليتم، حتى إذا بلغ اليتامى سن الرشد مع المساهمة في ترشيدهم تعود إليهم أموالهم التي يمنع التصرف بالإسراف في أصولها، كما يمنع المبادرة باستهلاكها قبل كبرهم (..) كان الرسول يدرك أن الحكمة الإلهية المكنونة في القرآن لا تحبذ تعدد الزوجات والزواج من الفتيات بالذات لمن كان متزوجا لذلك رفض بشدة زواج «علي» من أخرى، وقد احتار المفسرون في ذلك الموقف فتأولوه تبعا لأفهامهم فقالوا: إن الرسول لم يكن يرغب في أن يجمع رجل واحد بين ابنته وبين ابنة عدو الله .. فمنذ متى يحرم الرسول ما أحله الله ؟)[١]

(١) السابق ص ٦٣١.

وسبق له أن قال:

(فقد أوضحنا أن أي بحث في هذه المسألة لا يضع في اعتباره دلالة قصة «يوسف» مع «امرأة العزيز» (منع تواجد عنصرين أجنبيين امرأة ورجل – ضمن سقف واحد) ودلالة «منع التبني» .. لا يستطيع أن يدرك حقيقة مقدمة سورة النساء .. لم يكن هدف السورة قط إباحة التعدد ولكنها لمعالجة مشكلة الأيتام مع رفض تبنيهم من ناحية ورفض وجود كافلهم مع أمهم من ناحية أخرى، مما يجعل التعدد مشروطا بالزواج فقط للعناية بالأيتام من الرحم.

هذا المعنى الدقيق غاب عن المفسرين التقليديين؟ والسؤال لماذا غاب عنهم؟ هل لعجزهم اللغوي؟ لا، فقد كانوا فرسان الكلمة، ولكن غاب عنهم «الأسلوب الفكري التفسيري نفسه»! كان يتعامل مع القرآن ضمن أشكال الأجزاء والسور والآيات، ولم يستطع أن ينفذ إلى المنهجية الناظمة حيث يربط نص في سياق سورة بنصوص تبدو ذات غايات مختلفة في سور أخرى)[1].

وهنا عدة مسائل:

أولا: على طول حديث مفكرنا عن مسألة التبني كان الحديث عن سيدنا يوسف وسيدنا رسول الله – عليهما الصلاة والسلام – ولم يتحدث عن «الربيبة» وهي بالنسبة لزوج الأم «فتاة» في مقام الابن المُتَبَنَّى .. فهل تحدث نفس الإشكالات؟! أم أن الحديث عن «الربيبة» كان سينسف نظرية مفبركنا .. إذ من المستحيل أن يكون جميع الأيتام من الذكور!!

---

(١) السابق ص ٦٥٥.

ثانيا: لم يذكر المفكر في حالة وصول الأيتام إلى سن الرشد هل يطلق أمهم .. أم يستمر الزواج؟

ثالثا: إذا قلنا أن أهل تلك الفترة وحتى المفسرين الذي جاءوا بعد ذلك لم يفهموا أن التعدد «مقيَّد» بأم الأيتام .. فماذا عن الرسول ﷺ؟

المفكر يرى أنه فهم ذلك .. بدليل أنه رفض زواج سيدنا علي عليه السلام بأخرى .. ويكاد أن يسخر من الذين قالوا أن سبب ذلك هو رفض النبي ﷺ أن تجتمع ابنة نبي الله – عليه السلام – وابنة عدو الله تحت سقف واحد.

قد يسأل سائل ... كيف يسكت النبي ﷺ عن فهم الصحابة لإطلاق التعدد .. وهو مقيد .. ويتركهم يتزوجون مثنى وثلاث ورباع .. من غير أمهات الأيتام؟ وهل التعدد بغير ذوات الأيتام حرام أم مكروه؟

وأخيرا: أين المنطق أو العقل في أن يتزوج «رجل» بثلاث نساء – إضافة إلى زوجته – كل واحدة لديها أيتام؟ هذه دار أيتام .. وليست أسرة!

وبعد .. إضافة إلى أن مفكرنا الكريم لم يكن أمينا مع الفلسفة المادية التي ينطلق منها والتي كانت تحتم عليه أن يحاكم ماضينا حسب بيئته .. فإن مسألة تعدد الأزواج لم تكن مفتوحة في القرن السابع الميلادي فقط، بل إننا نجد – في عصرنا الحديث أي بعد أكثر من ألف سنة من الفترة التي حاكمها «حاج حمد» – مؤلف «قصة الحضارة» يقول عن تعدد الزوجات:

(ونذكر من بادئ الأمر أن الإنسان بفطرته ينزع إلى تعدد الأزواج، وأن لا شيء يستطيع أن يقنعه بزوجة واحدة إلا أقسى العقوبات،

ودرجة كافية من الفقر والعمل الشاق، ومراقبة زوجته له مراقبة دائمة)[1].

وينقل عن سابقيه من النصارى:

(وارتأى لوثر وهنري الثامن وأرزم والبابا كلمنت السابع أن الزواج من امرأتين يمكن أن يرخص به تحت شروط معينة، وخاصة إذا كان بديلا للطلاق (..) وكان البيت الذي يضم زوجا وزوجتين أمرا مألوفا كثيرا في فرنسا، مثال ذلك البيت الذي كان يضم هنري الثالث وكاترين دي مدتشي وديان دي بواتيه)[2].

إذا فالراهب الألماني «مارتن لوثر» (١٤٨٣ – ١٥٤٦) مُطلق عصر الإصلاح في أوربا، وفي القرن السادس عشر الميلادي .. كان له ذلك الرأي المعتدل في التعدد، في حين يحاكم فيلسوفنا التعدد الذي جرى في القرن السابع !!

وأخيرا .. هل نهبط بديننا إلى مستوى .. التماهي مع ما تطلبه الثقافة الغربية .. التي تغير وجهها كل حين؟!!

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت، طبعة جامعة الدول العربية، ترجمة: محمد بدران، جـ ٤ مجلد ٥، ص ٨٩.

(٢) السابق، ترجمة: محمد أبو درة، جـ٥ مجلد ٦، ص ٢٠٠.

«٦»

موقف الداروينيين من خلق آدم (عليه السلام)...

في هـذا الفصـل نـذهب إلـى لُـبّ اللـب أي خلـق أبينـا آدم، فهـو الـ«الجوهرة» في الفرق بين الفكر المادي والفكر الديني ..

إن كان الله – سبحانه وتعالى – قد خلق آدم مباشرة فذلك مسار الـدين والـوحي، وأمـا طريـق الماديـة وتطـور داروين فطريـق آخـر مختلـف كـل الاختلاف كما سبق أن قلنا ..

حيث يبدأ الإنسان في الـدين من السـماء .. مـن خلـق الله – سبحانه وتعـالى – لآدم – عليه وعلـى نبينـا السـلام – وكلامـه معـه .. ثـم يـأتي الهبـوط .. وأمـواج تعلـو بالبشـر حـين يسـتنيرون بنـور الـوحي .. وقـد يهبطون إلى مستوى البهـائم حين يضيعون البوصـلة المتصـلة بالخـالق سبحانه وتعالى .. إلى أن تقوم الساعة على أشباه البهـائم .. لا يعرفـون معروفا .. ولا ينكورن منكرا ..

أمـا طريـق «التطـور الـدارويني» فيبـدأ مـن «أميبـا» .. ورحلـة تطـور طويلة .. يبدأ فيها الأمر من الصفر .. إلى أن يعتدل الإنسان واقفـا .. ثـم يصبح «الإنسان الكامل» ضمن الاحتمالات الواردة.

أراد مفكرنا الأستاذ محمد أبـو القاسـم حـاج حمـد أن يتخـذ طريقـا وسطا .. فهو الذي تحزم بالقرآن، وبالتالي لابد أن يربط فلسفته بـالقرآن الكريم.. يقول عن داروين:

(ثم نسـفت الفكـرة الكونيـة الآليـة التـي افترضـت عنصـر الثبـات في الحركة، وجاءت الفكـرة التطوريـة الداروينيـة لتقـدم مفهومـا عـن أصـل الإنسان مختلفا عن مفهوم «الكنيسة» المفهوم التطوري)[1].

---

(١) جدلية الغيب.. ص ٢٥٤.

ولا أدري لماذا قال مفكرنا «مفهوم الكنيسة» تحديدا وهو ينطلق من القرآن الكريم؟!

بل إنه من المعلوم أن البعض عند الحديث عن «اللاهوت» في الديانة النصرانية يفرق بين «الدين» و«الكنيسة» أو بين «المسيح» و«بطرس» .. الأول «دين» الرحمة والشفقة .. والثاني تتضح معالمه في القسوة ضد من يخالفه المذهب من النصارى أنفسهم، فضلا عن من يخالفهم في الدين، وما ذكرى محاكم التفتيش ببعيدة عن الأذهان.

كما قلتُ: يأخذ مفكرنا طريقا وسطا بين التطور الدارويني، وأقول «الدارويني» وليس تطور داروين .. لأن الدراسات تقول أن داروين لم يذكر التطور أصلا في كتابه!!

يقول بيجوفيتش:

(العالم «الباليونتولوجي» الأمريكي الدكتور ستيفن جاي مؤلف الكتاب المشهور عالميا«the mismeasure of man» يبرهن على أنه توجد إشكالية فيما يخص داروين. فلم يبرهن داروين في أي مكان بأن التطور يعني التقدم الملزم، وتهرب حتى من كلمة «تطور». وكل ما أكده داروين أن الجسم يتأقلم، وهذا يعني أن تغيير المحيط الطبيعي هو سبب لتغير الجسم. وهذا ما يسمى بنظرية التكيف المحيطي.

ويقول جاي: «فكرة التطور هو تقدم شامل، وبأن هذا التطور من الأميبا إلى الكائن البشري هي من الأفكار الثقافية السابقة»)[1].

أما «حاج حمد» فإنه يقول:

(قد أدى نفخ الروح الإلهي في آدم إلى ضرورة تميزه العقلي

---

(١) هروبي إلى الحرية ص ٢٩١ – ٢٩٢.

والسلوكي عن البهيمية البشرية لأولئك الذين احتجت الملائكة على سلوكهم (..) وقتها لم يكن آدم قد خُلِقَ بعد، فوجوده لاحقا كان بغيب يعلم الله ميقاته، فلما انكشف الغيب عن هذا الميقات «وُلد» آدم من أبوين بشريين حيث نفخ الله فيه الروح وعلَّمه الأسماء)[1]!

إذا فـ«آدم» قد وُلد من أبوين بشريين .. ثم نفخت فيه الروح !! لم يقدم مفكرنا دليلا واحدا على وجود أبوين لـ«آدم» من القرآن الكريم الذي تحزم به، ولا من غير القرآن، وهنا تجدر الإشارة إلى أن أحد أسباب نفور «الداروينيين» من السُّنة المشرفة – كما سبقت الإشارة – لأنها تدحض فلسفاتهم التي تستغل أن القرآن الكريم «حَمَّال أوجه»، مثل حديث الترمذي، والذي صححه الألباني:

«إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِن جَمِيعِ الأَرْضِ فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ جَاءَ مِنْهُمُ الأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالحَزَنُ، وَالخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ».

هذا فقط للتذكير بدوافع نفور «الداروينيين» من السنة المطهرة .

يركز المفكر «حاج حمد» كثيرا على التفريق بين «الخلق» و«الجعل»، فبعد أن يشن حملة على المفسرين القدامى مثل قوله:

(سرعان ما يفسر خلق الإنسان كاملا في هيئته الأولى ضمن أحسن تقويم، ثم يسارع إلى ربطها بآيات أخرى: ﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠]، وكذلك ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [غافر: ٦٨] حيث يستقبل الذهن هذه المعاني بخلفيته العقلية ويصل بها إلى النتائج المعروفة لدى التفسيرات التقليدية)[2].

---

(١) جدلية الغيب.. ص ٨٤ – ٨٥.

(٢) جدلية الغيب .. ص ٦٤١ (السابق)

ويقول أيضا:

(فالطور هنا – بالمعنى السلفي – ما يتعلق بحالة الطفولة والرجولة والكهولة، أو بمختلف مراحل نمو الجنين في بطن أمه. وحين نستمر في مقارنة إسقاط التركيب الذهني (..) ويستمر الإسقاط الذهني المفارق إلى عبارات لم يقف لديها الأقدمون إلا في حدود الانسياب الجمالي للفظيات القرآن: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]، وليس «إني خالق» والملائكة في «عتبهم» على الإرادة الإلهية لم يصدروا عن علم بغيب الإنسان الذي لم يخلق بعد، فمن أين لهم التساؤل؟)[١].

يبدو لي أن في القرآن الكريم آية تقول: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الحجر: ٢٧] .. فالجن خُلقوا قبل البشر، فلماذا لم يناقش «حاج حمد» احتمال – مجرد احتمال – أن يكون «الجن» هم الذين احتجت الملائكة على سلوكهم .. وخشيت أن يكرر البشر أفعالهم؟ أي بعيدا عن علم الغيب؟

أما ما يتعلق بـ«خلق» و«جعل» فيقول:

(فالجَعْل صيرورة ضمن خلق كائن، أما الخَلْق فهو إنشاء من جديد وعلى غير مثال سابق (..) لم يكن بحثنا انتصارا للتطورية الداروينية التي يأتي القرآن بما هو أعمق منها تفصيلا في مسالة الخلق والنشأة وتصوير الكائنات)[٢].

---

(١) السابق ص ٦٤٢.

(٢) السابق ص ٨٠.

ويعود فيكرر الفكرة:

(ويوضح الله في آيات السجدة علاقة التفاعل بين عالمي الغيب والشهادة بالفارق الدقيق بين استخدام عبارتي «خلقنا» و«جعلنا»، فالخلق من الغيب كما يقتضي الأمر الإلهي في إبداع الشيء من غير أصل أو احتذاء، أما الجعل فهو من عالم الشهادة حيث مجرى الصيرورة وتحول الشيء من شيء وتصيره على حالة دون أخرى)[1].

العجيب أن مفكرنا بعد كل هذا الوضوح في الحديث عن «الخلق» الذي هو «إنشاء من جديد وعلى غير مثال سابق» حسب نص كلامه في الصفحة ٨٠ من كتابه نجده يقول - وقد نقلناه سابقا - :

(قد أدى نفخ الروح الإلهي في آدم إلى ضرورة تميزه العقلي والسلوكي عن البهيمية البشرية لأولئك الذين احتجت الملائكة على سلوكهم (..) وقتها لم يكن آدم قد خلق بعد، فوجوده لاحقا كان بغيب يعلم الله ميقاته، فلما انكشف الغيب عن هذا الميقات «وُلِدَ» آدم من أبوين بشريين حيث نفخ الله فيه الروح وعلَّمَهُ الأسماء)[2].

إذًا فآدم وقتها لم يكن قد «خُلِقَ»!!! مع أنَّ «حاج حمد» قال لنا من قبل أنه ولد لأبوين بشريين ... وهذا يعني أن لا يقع تحت «الخلق» الذي هو فعل مفاجئ على غير مثال سابق !!

ليس هذا فقط .. بل مفكرنا يؤكد - كما رأينا - على أن الحق سبحانه وتعالى قال للملائكة «إني جاعل» ولم يقل لهم «إني خالق»، ويتجاهل «حاج حمد» أن «الخلق» في «الجنة» و«الجعل» في الأرض: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]!

---

(١) السابق ص ٢٣٨.

(٢) السابق ص ٨٤ - ٨٥.

إنَّ الإنسانَ لَيَعجب من الذهول[1] الذي أصاب مفكرنا وهو متحزم بالقرآن الكريم .. كيف ذهل عن تسلسل الآيات في سورة الحِجْر:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٨ - ٢٩]

وقد تحدث مفكرنا – في موضعٍ آخر – عن الفَرْق بين العَطْف بالواو والعَطف بثُمَّ ... وهنا نجد العطف بالواو: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ ... فنفخ الروح عطف على التسوية بالواو .. إضافة إلى أن الآية الكريمة ذكرت أن نفخ الروح تم للبشر .. الذين يصفهم مفكرنا بالبهيمة البشرية .. كما يقرر أن نفخ الروح هو الذي ميز «آدم»عن البهيمية !!.

أما الذي يحرك البشر فهو «النفس»، أما «الروح» فقد بدأت بنفخها في آدم .. عليه وعلى نبينا السلام .. ويفصل مفكرنا في الحديث عن الفرق بين «النفس» و«الروح».

كما أن قول الحق سبحانه وتعالى ﴿ خَٰلِقٌۢ بَشَرًا ﴾ – أي: فعل مكتمل مفاجئ على غير مثال سابق – ينقض النظرية الداروينية التي يحوم حولها مفكرنا ويتحدث عن الرحم الكوني و«الأرض ذات الصدع»، وتشبيه ما حصل في ذلك التفاعل الكوني بتكوين الجنين في رحم الأم!!.

يقول «حاج حمد»:

(بالنسبة للرحم الكوني الذي أُبدع فيه الإنسان حتى أصبح تكاثره عن بعضه لا بطريقة الانقسام العددي ولكن بموجب نطفة تجد في رحم

---

(١) وإني لأعجب الآن من ذهولي – أنا أيضا – عن قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ﴾ [الزمر: ٦]

المرأة ما وجده الإنسان من قبل في رحم البيئة الكونية: ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح: ١٤])[(١)].

ويقول مفكرنا في إطار شرح فلسفته الكونية:

(... وبمعنى آخر: معاودة الاندماج في الرحم الكوني بالوعي بعد أن تم الانفصال عنه بالخلق، وكما تم الانفصال بالخلق أطوارا يعود الاندماج بالوعي أطوارا. والأطوار التاريخية ثلاثة: «العائلة، والقومية، والعالمية تماثل الخلق الكوني للإنسان في الرحم في ظلمات ثلاث، وتماثل النسيج الكوني، تتحول إلى كائن عضوي، ويتحول إلى إنسان»)[(٢)].

هنا نجد مفكرنا يتحدث عن «الانفصال بالخلق» مناقضا مرة أخرى تأكيداته على أن «الخلق» أمر فجائي على غير مثال سابق .. وكان عليه أن يسمي ذلك الفصل بأي اسم آخر .. غير «الخلق».

ثم إن «النسيج الكوني الذي تحول إلى إنسان» .. قفز فوق «البشر» – أشباه البهائم – وقفز كذلك فوق نظرية «داروين»، وتبني نظرية أحفاد «داروين» الذين تجاوزوه وتحدثوا عن «التطور» الذي تهرب منه «داروين» نفسه .. كما يؤكد العالم الأمريكي الدكتور «ستيفن جاي» .. والذي نقلنا كلامه في مستهل هذا الفصل.

فيما يتعلق بخلق أبينا آدم – عليه وعلى نبينا السلام – يركز مفكرنا الكريم على أن الخطيئة التي وقع فيها أبونا آدم – عليه وعلى نبينا السلام – كانت على مستوى الروح، فيقول:

---

(١) جدلية الغيب .. ص ٤٥٦.
(٢) السابق ص ٢٨٢ – ٢٨٣.

(وهبط آدم حين غوى من مستوى خصائص الروح المتعالية على مؤثرات الطبيعة إلى مستوى خصائص النفس المنفعلة بها، فأحس الجوع والبرد والظمأ والحر، فتحول الجسد المتعالي بقوة الروح إلى «سوءة» متأثرة بالمحيط الطبيعي، والسوأة غير العورة في دلالات ألفاظ القرآن، فأصبحت هذه السوأة الجسدية عارية أمام مؤثرات الطبيعة بعد أن نزع عنها «لباسها» الروحي، واللباس غير الثوب في القرآن.

فقد نزع إبليس بغوايته لهما عنهما لباسهما الروحي، فتدنيا إلى خصائص الجسد والنفس)[1].

ويكرر الأمر كالعادة .. فيقول:

(فالزلة الآدمية ليست معصية ضمن عالم النفس والحواس، ولكنها معصية ضمن عالم الروح، والأمر الإلهي المطلق - أي معصية فوق عالم الإرادة وفوق عالم المشيئة - ويتضح ذلك بالترابط المنهي في هذه الآيات: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه: ١١٥ - ١٢٢])[2].

---

(١) السابق ص ٨٣.

(٢) السابق ص ٦٠٩.

ولم يكلف «حاج حمد» نفسه الوقوف عند سؤال صغير:

هل تقع الروح في المعصية؟ وهل يتم تكليفها؟ وهل يتم تكليف روحين بأمر واحد؟ علما بأن فرعون والنمرود وهتلر وستالين وماركس .. إلخ في عالم الذر أو الروح قالوا جميع «بلى» ردًّا على «ألست بربكم»؟

ورغم أن مفكرنا أورد الآية الكريمة التي فيها:

﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾ إلا أنه لم يكلف نفسه الوقوف ليسال:

هل الأرواح تخصِف على نفسها من ورق الجنة ؟!!!

الله !!

من أين أتت «حواء» هذه – أو حواء الطيبة كما يصفها – هل ولدت لأبوين بشريين .. ثم نفخ الله – سبحانه وتعالى – فيها الروح؟

هذه نقطة تجاهلها «حاج حمد» تماما، واكتفى بوصف أمنا حواء بالطيبة وأنها لا علاقة لها بموضوع الخطيئة.

هامش:

مرة أخرى ذهلتُ عن قول الحق سبحانه وتعالى عن إبليس لعنه الله: ﴿ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٣٣]

لاشك أن مفكرنا يعلم أن إبليس قد خُلق قبل آدم – عليه وعلى نبينا السلام – وإن كان من الصعب علينا استدعاء إبليس للشهادة!!

ولكن الآية الكريمة شديدة الوضوح .. ﴿لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾.. ولعل «حاج حمد» كما ذهل – وذهلت – عن هذه الآية

الكريمة، قد ذهل - كذلك - عن قول الحق سبحانه وتعالى عن إبليس أيضا:

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢]

مرة أخرى .. ﴿ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ .. ولم يقل «جعلته»!!

في هذا الهامش أيضا يذكرنا قول «حاج حمد»:

(وهبط آدم حين غوى من مستوى خصائص الروح المتعالية على مؤثرات الطبيعة إلى مستوى خصائص النفس المنفعلة بها، فأحس الجوع والبرد والظمأ والحر، فتحول الجسد المتعالي بقوة الروح إلى «سوءة» متأثرة بالمحيط الطبيعي)(١).

هذه الأسطر تذكرنا بما جاء في رواية الأستاذة «رجاء عالم» حين تكتب «عائشة» - ودائما لصديقها الألماني أخصائي العلاج الطبعي الذي «زوَّجته نفسها» :

(هل قلتَ بأن غولي هو قصة الهبوط من الجنة؟ ما الذي ترفضه في حقيقة أن حدثا واحدا سببّ هبوطنا من الجنة؟ حين اكتشف الجسد مذاقه وأسراره صار أثقل من أن تحمله طبقات السماوات، وصار لزاما ارتطامه بالأرض ..)(٢).

كوجهة نظر خاصة .. أرى نوعا من التشابه بين النصين .. والفارق بينهما .. يكمن في الفرق بين «الفلسفة» .. و«الأدب».

وفيما يتعلق بأمنا حواء - عليها السلام - والتي تجاهل «حاج حمد» الحديث عنها: إن كانت من بقية البشر المنقرضين أم خُلقت من «ضلع آدم» عليه وعلى نبينا السلام ؟!! أم أنها «جنية»؟!!

---

(١) جدلية ... ص ٨٣.

(٢) رواية «طوق الحمام» / رجاء عالم «نسخة إلكترونية» ص ٣٠٤.

جاء في كتاب الدكتور علي الشوك:

(في مهرجان الفاكهة في فلسطين القديمة - وهو طقس يرقى إلى أيام الكنعانيين - كان المحتفلون يحملون الترسوس[1] باليد اليمنى وأغصان السفرجل باليسرى، ويدورون (..)، وكان الترسوس يزين بثلاثة أغصان: الآس في اليمين، وسعفة النخيل في الوسط، وغصن الصفصاف في اليسار، حين يكون القمر بدرا، وذلك اعتقادا منهم أن القمر حين صار بدرا في جنة عدن قطعت حواء الثانية - بعد ليليت العفريتة التي تزعم الأساطير العبرية أنها كانت زوجة آدم الأولى - غصن آس وتشممته فقالت: «إنها نبتة تصلح تعريشة للحب»، لأنها كانت على أحر من الجمر لعناق آدم. ثم قطعت سعفة وضفرت منها مروحة ثم قالت: «وهذه مروحة لإذكاء النار». وقطعت سعفة أخرى اتخذتها صولجانا وقالت: «سأعطي هذا الصولجان لآدم، وأقول له: اتخذه أداة لتسود بها عليّ». وأخيرا قطعت غصن صفصاف وقالت: «وهذه أغصان تصلح للمهد»)[2].

انتهى الهامش ... فإلى الفصل التالي ..

---

(١) في الهامش: صولجان أو رمح يتوج بحلية على شكل كوز صنوبر، ويلف أحيانا بأعواد الكرمة وأغصان الفاكهة.

(٢) جولة في إقاليم اللغة والأسطورة، د. علي الشوك، دار المدى للثقافة والنشر، بيروت، ١٩٩٤، ص ٦١.

«٧»

ملاحظات ختامية ...

في هذا الفصل الختامي سنقف بضع وقفات مع ملاحظات تبدت لي وأنا أقرأ الكتاب:

○ **الوقفة الأولى:** مع أن مفكرنا «حاج حمد» قد تحزم بالقرآن الكريم ليقدم لنا نظرية أو فلسفة تتكئ على القرآن الكريم ... مستفيدة من المنهج الغربي والنظريات العلمية الغربية، أقول: رغم ذلك إلا أنه شحن كتابه – النسخة التي وقعت بين يديّ – بأسماء العلماء الغربيين بشكل لافت للنظر، وعلى سبيل المثال نجد الأسماء التالية:

لوك

آدم سميث

أجوست كونت

إدوارد تيلر

دينكن ميتشيل

فرانسيس بيكون

ميشال فوكو

ليبنتز

برتراند رسل

لودفج فتجنشتين

باشلار

جان فوراستيه

فوكوياما

اشبنجلر

كولن ولسن

إنجلز

إميل دوركهايم

إيرك فروم

رودني هلتون

نيوتن

جون ديوي

جاليليو

بافلوف

داروين

وهناك أكثر .. وسنشير مجرد إشارة إلى أربعة أسماء من هذه القائمة الطويلة:

١ - جون ديوي: وقد كتب عنه الدكتور «خضر» متحسرا على استيراد المثقفين العرب لأفكار غربية تجاوزها أهلها:

(... فبينما كان الرئيس الأمريكي الأسبق إيزنهاور يهاجم الفلسفة البرجماتية في عقر دارها وموطنها «١٩٥٩» كان موسم ازدهار البرجماتية عندنا .. ينتقد إيزنهاور أبو التربية البرجماتية جون ديوي «١٨٥٩ - ١٩٥٢» قائلا:

«إن السنوات الخمس التي قضيتها في منصبي كرئيس للجمهورية جعلتني مؤمنا تماما بحتمية إعادة النظر في تعليمنا، ويجب على المربين والآباء والطلاب أن يشعروا مثلي بالسخط على العيوب الكامنة في

نظامنا التعليمي، عليهم أن يسلكوا طريقا تعليميا غير ذلك الذي سرنا فيه معصوبي الأعين بفضل تعليمات جون ديوي»[١].

٢- جاليليو:

أما جاليليو فيقول عنه «حاج حمد»:

(نظرية جاليليو في دوران الأرض ليست مجرد نظرية فلكية، إنها تحطيم لمبدأ السكونية، وهذا وعي جديد)[٢].

فماذا قال صاحب «قصة الحضارة» عن نظرية جاليليو؟ يقول ديورانت:

(كتب جاليليو جاليلي - ١٥٦٤ - ١٦٤٢ - في رسالة إلى دوقة تسكانيا الكبرى سنة ١٦١٥ - قبل محاكمته -: «بالنسبة لترتيب أجزاء الكون أعتقد أن الشمس قائمة دون حركة في مركز دوران الأجرام السماوية» ثم علق ديورانت وفي الهامش قائلا: «مِن سخرية التاريخ أن هذه القضية لا يؤمن بها اليوم أي فلكي، وربما كان الفلك بأسره مثل التاريخ برمته يجب أن يؤخذ على أنه فرضية»[٣].

٣ - بافلوف: والذي كتب عنه علي عزت بيجوفيتش:

(عدم ثبات العلماء: مؤسسة نظرية الانعكاس الشرطي «البروفسور بافلوف» كان يذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد. ولا شيء في مجاله إلحاديا أكثر مثل نظرية الانعكاس الشرطي)[٤].

---

(١) د. محسن خضر: مقالة (البرجماتية في التربية والثقافة العربية)، مجلة الهلال (القاهرية)، مايو، ١٩٩٣م.

(٢) جدلية ... ص ٥٦٠.

(٣) قصة الحضارة، ول ديورنت، ترجمة: محمد أبو درة، - ط. جامعة الدول العربية، ج ٣ مجلد ٧، ص ٢٧٤.

(٤) هروبي إلى الحرية ص ٢٥٦.

٤- داروين: والذي يقول عنه «كوهين» مؤلف كتاب «تاريخ الأدب الغربي»:

(إذا وجد مَن هو ضد المسيح فهو داروين. بالنسبة له قانون حب الذات هو أعظم قوانين الطبيعة. وذلك القانون ليس حقا وحسب، وإنما هو واجب على الفرد. نظرية داروين عن التطور قامت بذلك الانقلاب في المشهد الإنساني في العالم والحياة، والذي لا يمكن مقارنته بالاختراعات الكبيرة السابقة «كوهين - تاريخ الأدب الغربي ٣ ص ٣٨»)[١].

○ الوقفة الثانية: أعتقد أننا لو قمنا بعمل إحصائية فسنجد أن أكثر كلمة استخدمها مفكرنا الكريم هي «المنهج»، فالكتاب كله بني على فكرة «المنهج»، ثم وجدته فجأة يقول:

(إن ما نملكه الآن هو اكتشاف جديد لنص قديم لم يكشف من قبل عن منهجيته. وكل ما نفعله الآن هو إعادة فهم النص ضمن تركيبة المنهج، أي منهجية التركيب القرآني. وأسلوبنا في اكتشاف تركيبة القرآن المنهجية لا ترجع إلى مناهج علمية أو دينية جزئية في التحليل كالتي يعتمدها الباحثون في معالجتهم لظواهر معينة، وإنما يعتمد أسلوبا على «جملة الوعي الإنساني» باعتباره قدرة كونية كامنة في الإنسان بحكم منشئه الكوني، وهي القدرة الوحيدة التي تقابل صفة القرآن الكونية الشاملة.

من هنا لن نتوقف كثيرا لدى «مسألة المنهج» إذ أننا نعتبر أن ممكنات الوعي الكوني بالقرآن كامنة في التركيبة الكونية للإنسان نفسه وفي جملة وعيه الإنساني)[٢].

---

(١) السابق ص ٢٩٠.

(٢) جدلية ... ص ٦٣٦.

لن نتوقف عند «مسألة المنهج»؟!! ماذا كنا نفعل على مدى أكثر من ستمائة صفحة ؟!!

○ الوقفة الثالثة: لفت نظري كثرة حديث مفكرنا الكريم عن «الثلاثيات»، فهو يكررها بشكل لافت، فهو يقول:

(عبر منهج الجمع بين القراءتين، وقوة الوعي الثلاثي، والتزام مبدأ الحرية الفكرية كحالة الطير في جو السماء، كل هذا مقدمة نستأذن الله فيه، ونطلب قوة أمره وإرادته ومشيئته المباركة)[1].

نستأذن الله؟!! على كل حال .. نكمل الثلاثيات:

(إنما نعتمد على الجمع بين القراءتين وقوة الوعي الثلاثي)[2].

من «الوعي الثلاثي» إلى «جدلية ثلاثية» :

(فالقرآن هو المعادل بالوعي للوجود الكوني وحركته، وذلك بما يؤدي لتفعيل «جدلية ثلاثية»)[3].

فإلى حالات تاريخية ثلاث:

(من يومها واضح أن هذا الكيان العربي الذي بدأ بمعاناة الضغط على أطرافه «المغول – الصليبون»، ثم تقسيمه بين قوى الاحتلال الأوربي، ثم زرع إسرائيل في قلبه، واضح أنه يعاني ثلاث حالات تاريخية وموضوعية خطيرة)[4].

فإلى محطات ثلاث:

---

(١) السابق ص ٤٤٢.
(٢) السابق ص ٤٣٠.
(٣) السابق ص ٢٥٧.
(٤) السابق ص ٥٤٣.

(يتضح لنا الآن أن المحطات الثلاث لتطورنا لم تدامج بعضها تماما)[1].

فإلى انحرافات ثلاثة:

(إن هذه الانحرافات الثلاثة: ١-الحد من التفاعل بالجماليات ٢-عبورية الدنيا ٣-تعجيز الفعل البشري)[2].

وختاما للأمثلة .. تركيب العالمية الأولى الثلاثي أيضا:

(قد استند تركيب العالمية الأولى على :المبنى اللفظي للقرآن + القدوة الرسولية الحسنة + التطبيق التحويلي في إطار الخصائص المحلية)[3].

عذرا: بل إن عنوان الكتاب نفسه ثلاثي: (جدلية: الغيب والإنسان والطبيعة!!)

○ **الوقفة الرابعة**: بعد قراءة الكتاب توقفت لأسأل عن الغاية من هذا الكتاب .. وما الذي يريد أن يوصلنا له المفكر ؟ خصوصا حين أتذكر قوله:

(إن اليهود بالرغم من أقوالهم الغيبية قد حصدونا في كل حروبهم بطائرات تفوق سرعتها سرعة الصوت، وألقوا علينا حمما من السماء، ولم يقذفونا بألواح «موسى»، فهل نقابلهم برقى وتعاويذ من سور الكتاب؟

مهلا إني لا أسعى بكم إلى بيت واه كبيت العنكبوت، وإنما إلى البناء الإلهي ..)[1].

---

(١) السابق ص ٥٥٢.

(٢) السابق ص ٦٠٧.

(٣) السابق ص ٦٣٨.

بما أن اليهود لم يقذفونا بصفحات من كتابهم المقدس وإنما بطائرات أسرع من الصوت .. تصورت أن مفكرنا سيتحدث عن التقانة التي تجعلنا نرد الصاع لليهود صاعين .. أو أكثر .. ولكنني فوجئت به يتحدث عن محورين:

- المحور الأول: الفن .. الشعر .. الموسيقى .. الرسم .. النحت .. فيقول مثلا:

(ومن موقف القرآن والرسول بالنسبة للشعر كلوحة عربية ذات دلالات جمالية أنتقل إلى موقف الرسول تجاه سائر أنواع الجماليات الأخرى التي تجسد حيوية الإنسان، وتفاعله مع الحياة، والتي أعتبرها مقدمة ضرورية في بناء الإنسان الحضاري الحر المنطلق. أقصد بهذه الأنواع: النحت والرسم والموسيقى وسائر الجماليات الأخرى التي رأينا تأثيرها كمقدمة لازمة للحضارة البشرية)[٢].

ويشن حملة على الذين يحرمون الفن .. والذين لم يدخلوا مسرحية أبدا .. إلخ.

أولا: وربما في الهامش فقط .. يقول سليل الثقافة الغربية علي عزت بيجوفيتش عن الفنون التشكيلية التي يتباكى عليها مفكرنا:

(إن جميع ما يسمى بالفنون التشكيلية هو فن وثني في أصله. ولعل هذا تفسيرا لحساسية الإسلام وبعض أديان أخرى لا تميل إلى التجسيد تجاه هذا اللون من أشكال الفنون)[٣].

---

(١) السابق ص ٥٢٢.
(٢) السابق ص ٦٠٠ - ٦٠١.
(٣) الإسلام بين الشرق والغرب ص ٨٠.

هذا في الهامش أما المتن .. فثانيا: يكفي أن نتذكر أن كلية الفنون الجميلة في مصر افتتحت في ١٢ مايو ١٩٠٨ بعد أن أوقف الأمير يوسف كامل - من الأسرة المالكة - مائة وعشرين فدانا من أجود الأراضي الزراعية، وبعض العقارات في الإسكندرية على الفنون الجميلة .. كما لا ننسى فناننا العظيم والرائد! محمود مختار (١٨٩١ - ١٩٣٤) صاحب تمثال «نهضة مصر».

وفي العراق افتتح «معهد الموسيقى» في بغداد سنة ١٩٣٦م .. ثم تغير اسمه إلى «معهد الفنون الجميلة» سنة ١٩٤٠م.

وفي سوريا افتتحت «كلية الفنون» سنة ١٩٦٠ - ١٩٦١ م

أما الموسيقى .. فلدينا قامات شامخة .. الرائد الشيخ! سلامة حجازي (١٨٥٢ - ١٩١٧)، والشيخ! سيد درويش (١٨٩٢ - ١٩٢٣)، والشيخ! أبو العلا محمد (١٨٨٤ - ١٩٤٢)، والشيخ! درويش الحريري (١٨٨١ - ١٩٥٧)، والشيخ إمام! (١٩١٨ - ١٩٩٥م)، ولسنا في حاجة للإشارة إلى محمد عبد الوهاب والسنباطي .. إلخ.

إذا فنحن لم نؤت - قطعا - من قِبل الفن ولدينا كل هذه الريادة .. في الفن والموسيقى .. وقبل أن تزرع إسرائيل بين جنبينا!!

- المحور الثاني: «النفط» فيقول عنه:

(... ولهذا تدفق النفط في الجزيرة العربية كأساس مادي لتطور متسارع يختصر جهدا بشريا ضخما. وكل شيء قد قدره الله تقديرا)[1].

وكان قد قال من قبل:

---

(١) جدلية .. ص ٥٣٢.

(... ما جمعه اليهود في مئات السنين تدفق من بئر نفط واحدة تحت نعل شيخ بدوي كل ما كان يفعله هو الصلاة ساجدا بجبهته على رمال الصحراء الناعمة ومختتما سلامة بالصلاة على الرسول)[١].

عجيب أن يصدر هذا الكلام عن رجل كان قبل قليل يلومنا .. ويتحدث عن الطائرات .. التي هي أسرع من الصوت .. ويتساءل ساخرا: «فهل نقابلهم برقى وتعاويذ من سور الكتاب؟» فإذا به يتحدث عن بدوي لم يفعل أكثر من وضع جبهته على التراب .. ويختم صلاته بالصلاة على النبي ﷺ!!.

كما أن هذا الكلام قد يفهم عند تأليف الكتاب ونشره في فترة الطفرة النفطية، أما عند إعادة النشر .. وبعد أن تبين أن النفط لم يفعل شيئا سوى زيادة الترف ... وتجاهلُ الحديث عن نضوب النفط .. وبدائل النفط .. فعجيبة أخرى!!

○ **الوقفة الخامسة**: يبرز في طرح مفكرنا «حاج حمد» محوران آخران:

- **المحور الأول**: والذي يلمسه مفكرنا لمسا خفيفا فهو أن صراع العالمية الإسلامية الثانية قائم على:

(ثم لا يبقى بعد ذلك سوى التدافع العربي - الإسرائيلي)[٢].

ويقول:

(إن تاريخنا المعاصر يتجه - عبر صراعنا مع إسرائيل - إلى وضع لبنات العالمية الإسلامية الثانية)[١].

---

(١) السابق ص ٤٥٨.
(٢) السابق ص ٨٩.

ولكنه بطبيعة الحال لم يبين لنا كيف سيحسم ذلك الصراع، وهو الذي سخر من تحدث الحجر في آخر الزمان .. وقال – ساخرا – أن الحجر لم يتكلم من قبل .. ولن يتكلم أبدا!!

- المحور الثاني: قد يكون هذا المحور وهو شديد الوضوح .. وكثير التكرار، هو السبب في خفوت صوت المحور الأول!!

إنه «السلام الكوني»!! وما كان لفيلسوف السلام الكوني أن يتحدث عن الحرب، وقد قال:

(أي توجيه الإنسان على طريق الوحدة والسلام وليس على طريق الصراع والحرب)[٢].

أيصدر هذا الكلام عن رجل سخر منا وذكر أن اليهود يقذفوننا بطائرات سرعتها تفوق سرعة الصوت!!

وهنا سأنقل مجموعة من نصوص «حاج حمد» المتعلقة بالسلام والوحدة:

١ – (إن الصورة التي يفصلها القرآن لطبيعة الخلق الكوني بما فيه الإنسان تجعل الحياة تتخذ نهجا محددا باتجاه واحد هو اتجاه السلم والوحدة .. سلام بين الله والإنسان الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين. وسلام بين الإنسان والكون الذي فصلت آياته وأحكمت للإنسان، وسلام بين الإنسان وذاته الاجتماعية)[٣].

٢ – (لتعطي المعنى الإنساني والمسخرة للإنسان علاقة التسخير والوحدة والسلام)[٤].

---

(١) السابق ص ٦٤٤.
(٢) السابق ص ٢٤٦.
(٣) السابق ص ٢٤٥.
(٤) السابق ص ٢٤٧.

٣- (فيحل الصراع بديلا عن السلام والانقسام بديلا عن الوحدة، ولا يصبح ثمة معنى للوحدة والسلام)[١].

٤- (حين يتحرر المطلق الإنساني يكتسب النظام السياسي معنى جديدا حيث يكون الاتجاه نحو السلم والوحدة كما بينا..)[٢].

٥- (أما الحضارة الإسلامية فهي في نسقها وتطورها تقوم على العناية الإلهية لها باعتبارها حضارة السلام والوحدة في شكلها العالمي)[٣].

٦- (التشريع القرآني، وهو منهج ينتهي إلى تحقيق السلام الكوني)[٤].

٧- (إنها منهجية السلام الكوني الشامل التي تطرح نفسها بديلا كاملا عن حضارة الصراع والتناقضات)[٥].

٨- (أوضاع متناقضة مع منهجية السلام الكوني (..) المنهج الإلهي فتتمحور كلها حول «الحق» و«السلام»، فبالحق خلقت السماوات والأرض وما بينهما، وبالسلام تمضي التجربة الكونية إلى مصيرها (..) كنزوع إلى التطبيق العملي لهذا المنهج، أي لتأكيد الحق والسلام في إطار الوحدة الكونية القائمة بالله)[٦].

٩- (هو أسلوب القراءة الكونية الجامعة لتحقيق الوحدة والسلام الكوني للبشرية جمعاء)[٧].

---

(١) السابق ص ٢٤٩.
(٢) السابق ص ٢٧٦.
(٣) السابق ص ٢٨٢.
(٤) السابق ص ٣٩٨.
(٥) السابق ص ٥٨٤.
(٦) السابق ص ٦٢٠ – ٦٢١.
(٧) السابق ص ٦٤٤.

١٠ - (هذا يؤدي إلى تكريس مفهوم السلام مع الله ومع الكون ومع الـذات ضـمن منهجيـة الخلـق الرحمـاني القـائم علـى التسـخير والوحدة)[١].

١١ - (إذن التشـريعات علـى اختلافهـا هـي نسـبية حسـب الواقـع التاريخي (..) وذلك لتحقيق السـلام الكـوني مـع الله ومـع الكـون ومـع الذات)[٢].

أعتقد أن هذا يكفي .. وليست هذه كل النصوص المتعلقة بالسلام والوحدة .. إلخ.

والسـؤال الـذي يخطـر في البـال: كيـف سـيقنع مفكرنـا العـالم بهـذا السـلام الكـوني .. والـذي مرتكـزه «القـرآن الكـريم»؟ كيـف والرجـل يخاطب صنفين / أحدهما لا يؤمن بوجود خالق أصلا .. فضلا عـن أن يرسل رسولا أو ينزل قرآنا، والصنف الثاني / يؤمن بوجود الخالق – أو قوة خارج الطبيعة أو «المحرك الأول» - ولكنه لا يؤمن بمحمد ﷺ ولا بالقرآن ... بل منهم من يرى أن الأفكار التي جاء بها محمـد ﷺ أخـذها من الكتب السابقة.

كـان التصـور أن يكـون الإعجـاز العلمـي في القـرآن سـلاحا لـدى مفكرنا، ولكن العكس هـو الـذي حصـل .. اكتفـى بأقـل مـن سـطرين .. رمى فيهما أصحاب الإعجاز العلمي في القرآن بصاروخ .. ساخر. ولـم يعقب !!

قال مفكرنا:

---

(١) السابق ص ٦٨٤.

(٢) السابق ص ٦٤٩.

(ولا علاقة لما نسوقه هنا بما يروى عن «الإعجاز العلمي في القرآن»، فالقرآن منهج رؤية كونية وليس مختبر علوم تطبيقية، وهؤلاء لا يأتون البيوت من أبوابها)[1].

وهنا عجيبة أخرى من عجائب مفكرنا .. فهو يتقبل كل فكرٍ .. ثم يتجاوزه .. إلا فكر إخوانه!! ثم هو يتجاهل شيئا لا يمكن تجاهله .. علماء من أهل الكتاب ومن غيرهم يدخلون الإسلام بسبب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ومن لم يدخل الإسلام - مثل أحد العلماء الأمريكان - قال: إن كان هذا الكلام - أي وصف مراحل نمو الجنين - في القرآن فهو ليس من عند محمد (ﷺ).

أما العالم الفرنسي موريس بوكاي فقصة أخرى، فقد كان كاثوليكيا، ثم أسلم بعد دراسة قصة فرعون في القرآن، وألف كتابه المعروف:

(التوراة والإنجيل والقرآن الكريم بمقياس العلم الحديث).

إن تجاهل كل هذه الصور أمر عجيب .. ثم يريد مفكرنا للعالم أن يؤمن بالقرآن بسبب «المنهج» الذي في داخله، والذي تجاوزه هو نفسه!!

***

ونختم هذه الرحلة الطويلة .. بعدة نصوص من بيجوفيتش، كلها مرتبطة بالماركسية التي تبناها - للتحليل - مفكرنا «حاج حمد»:

أولا: مقارنة بين ماركوس وهيدجر:

(ينتمي هيديجر تماما في فلسفته عن الموت إلى عالم التفكير والشعور المسيحي، مثلما ينتمي ماركس في فلسفته المتفائلة عن الحياة

---

(١) السابق ص ١٢، من المقدمة

إلى اليهودية والعهد القديم (..)، فلسفة ماركس سطحية وتفاؤلية، وفلسفة هيديجر عميقة ومتشائمة. وحدها الفلسفة التي تأخذ في حسابها الموت هي فلسفة حقة. لأنه يبقى طبعا السؤال: كيف يمكن الحديث بشكل حقيقي عن الحياة متجاوزين الحقيقة التي حقيقتها خارج مجال الشك .. حقيقة الموت)[١].

ثانيا: العملية نجحت والمريض مات!!

(الأطروحة الرئيسة لـ«ليشيك كولاكوفسكي» أن الدور التاريخي للماركسية قد تم إنجازه. لكن مشروع التغيير الثوري للعالم لم ينجح)[٢].

النص الأخير حول الماركسية:

(تخلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني عن الماركسية في مؤتمر بادجود سبورغ عام ١٩٥٩م «بوصفها طريقة لتحليل الظواهر الاجتماعية»، وانحاز هذا الحزب إلى ما يسمى «دولة الرفاه» بدلا من الصراع الطبقي)[٣].

أما لقطة الختام – وعن بيجوفيتش دائما – فتعيدنا إلى سعي معظم مفكرينا الجدد إلى «تبرير» ديننا وشرائعه للغرب أو للحضارة الغالبة .. يقول بيجوفيتش:

(كل نهضة حقيقية تبدأ بالشعور بالاحترام تجاه الذات نفسها. وإذا صلحت فإنه لا يفهم وضع سياج إزاء بقية العالم، ورفض أي اتصال.

---

(١) هروبي إلى الحرية ص ٢٤ – ٢٥.

(٢) السابق ص ٣٤٠.

(٣) السابق ص ١٢٢.

إنه اختيار الطريق الذاتي والاتصال ذو المسربين مع بقية العالم. هذه هي النهضة الحقيقية)[1].

لن تقوم لنا نهضة ما دمنا نعدو خلف الغرب ... لا في التقانة وحدها .. ولكن في كل شيء .. وما دمنا لا نملك الشعور باحترام أنفسنا وثقافتنا .. وقبل ذلك كله .. ديننا .. فلن نندم، مع مفكرنا، لأن سيدنا رسول الله ﷺ تزوج أمنا الطاهرة المطهرة عائشة رضي الله عنها وهي صغيرة .. لمجرد أن ذلك لا يعجب الحضارة الغربية .. الكاذبة.

---

(١) السابق ص ١٦٥.